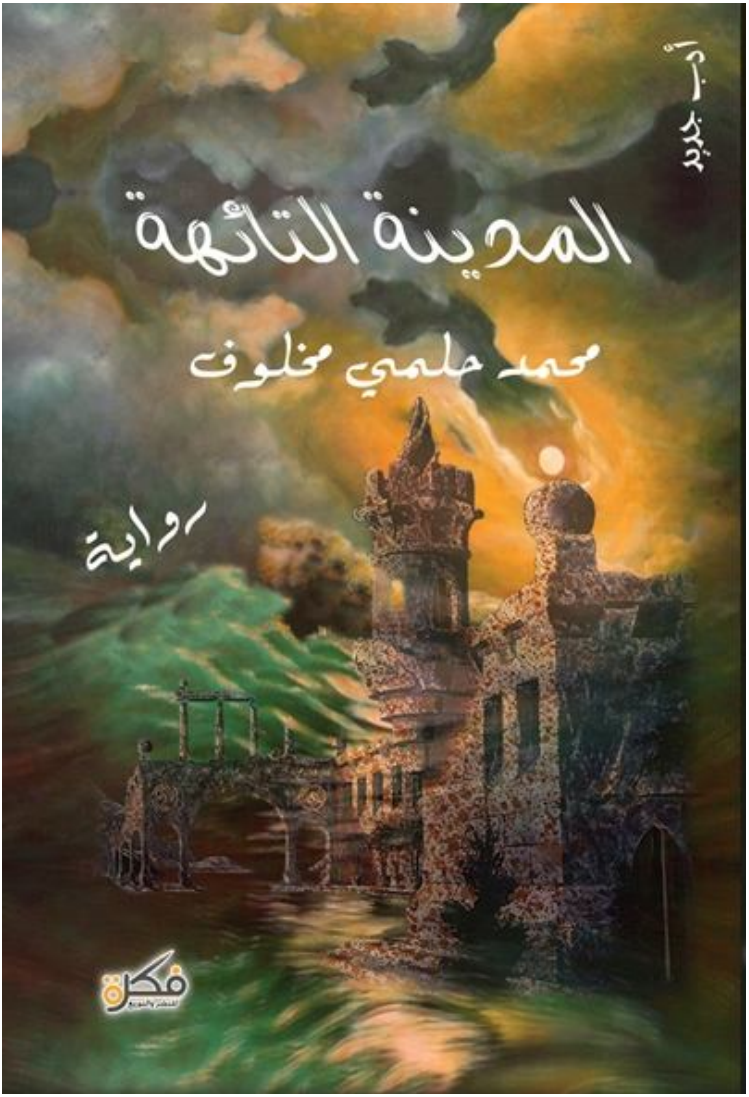
أدب جديد
المدينة التائهة
محمد حلمي مخلوف
رواية
فكر

إهـــداء

أبي..
أمي..
والله لو كنت مثَّالًا وأملك القليل من السلطان
لصنعت لكما تمثالًا
ووضعته في أكثر الميادين شهرة.

م.ح

الخائفون لا يصنعون الحرية..

والمترددون لا تقوى أيديهم المرتعشة على البناء..

جمال عبد الناصر

النتن لا يشم رائحته بل يشمها الآخرون..

م.ح

تنويه

قصة مملة كلما رويتها لأحدهم يغط في نوم عميق قبل أن أفرغ منها،
فأرجو أن يكون لدى أحدكم سعة صدر لسماع قصتي للنهاية.
أعتذر لعدم كتابة اسمي للاعتبارات
الأمنية.
كتبت هذه السطور في بلاد
ما وراء الجبل بعيدًا عن الجدران
المرصعة بالعيون

(1)

حطت رحال قبائل (المالفيو) في بلاد ما وراء الجبل ما بين سنتي 1650 و 1667.. كان (مالدينو) زعيم قبائل (المالفيو) يملك أصابع ذهبية في تدليك الأجساد، يمررها برفق، تسترخي الأعصاب وتعود لسيرتها الأولى.. فاقت شهرة (مالدينو) الآفاق، استولى الأمراء على أصابعه..تردد اسمه في بلاط الإمبراطور (خاقان) كاسح الجيوش، صاحب الجسد الضخم، المبارز المحنك، لم يستطع أحدٌ هزيمته.

"كم تحتاج يا (خاقان) ليد تزيل عن كاهلك وعثاء الحُكم والمبارزة"

أمر (خاقان) بإحضار (مالدينو).. جربه. أدمنه. عينه مدلكه الخاص.

- لن تمتد يدك لغيري بعد اليوم يا (مالدينو).

يدخل (مالدينو) مع الأمبراطور الحمام الكبير المكسو بالرخام بعدما يقوم الحرس بتفتيشه جيدًا، سيعطيه الإمبراطور ظهره وهو لا يأمن أحدًا عليه، يجرده من ملابسه، وينام الإمبراطور في المغطس، ويبدأ (مالدينو) التدليك، لتسترخي أعصابه...ينسى جميع المشاكل، ويصفو ذهنه...بخوف قص (مالدينو) حكايات ونوادر رآها في ترحاله، يضحك (خاقان)، أقتحم (مالدينو)قلبه بحلاوة لسانه وطلاوة حديثه...بعد كل جلسة يتمكن (مالدينو) من زرع أحد أقاربه داخل القصر حتى تمكن من زرعهم جميعًا, أخبر (مالدينو) الإمبراطور عن مؤامرات تحاك ضده للاستيلاء علي العرش، دغدغت الثقة عقل (خاقان) فأصابته بالشلل..طلب مشورة (مالدينو) فأخبره بضرورة التخلص من (قادل)قائد الجيوش.

- (قادل) أوشك علي الاستيلاء علي العرش...يجند الجند لحسابه, وأصبح الجيش جزيرة منعزلة داخل المملكة.

أتسعت عين (خاقان) ذعرا, ثم قطب حاجبيه في غضب.

***

بعدما انتهى (خاقان) من مبارزة(قادل) قائد الجيوش.. لا يقتل غدرًا، عند شعوره بضرورة التخلص من أحدهم يعلن المبارزة، لا يجرؤ أحد على الرفض.. هذه المرة كانت مرهقة، فالقائد مبارز محنك، ولكن شأوه لم يصل له، تمكن من فصل رأسه عن جسده بعدما أثخنه بالجراح.. استدعى

(مالدينو) ليزيل عن كاهله عبء السنوات الطويلة التي قضاها في صداقة (قادل)، كالمعتاد رفع(مالدينو) ذراعيه أمام الحرس. فتشوه.
- لاشيء. ادخل.
أعطاه (خاقان) ظهره، وفرد ذراعيه بجانبه، جرده (مالدينو) من ملابسه...نام (خاقان) في المغطس.. شمر (مالدينو) عن ذراعيه وبدأ التدليك..استرخى (خاقان)، أغلق عينيه... بقبضته هوى (مالدينو) على حنجرة (خاقان) بقوة فكسرها، اتسعت عينا (خاقان) عن آخرهما، أمسك برقبته، وضغط عليها، حاول أن يصنع فرجة ضئيلة يغزو منها الهواء جسده.
حشرجة .
ارتعاشه.
تشنج.
ثم سكن الجسد.
اندفع (مالدينو) خارجً الحمام...ولول, لطم خديه، شق جيبه.. اقتحم الحارسان الحمام. بخوف تفحصوا جسد الإمبراطور..تبادلا نظرة زائغة .
- مات.
تفشى الهرج والمرج داخل أروقة القصر.. يعدو الجميع في كل اتجاه زائغي العيون متخبطين.. يقطعون الدهاليز ويعودون دون أن ينجزوا شيئًا..أشهر رجال قبائل(المالفيو)السيوف والخناجر المخبأة بين ثنايا ملابسهم، أعمدوا القتل والذبح في الجميع، استدعوا الأمراء:
"الإمبراطور مات"
"يجب أن يترك الجميع أسلحتهم بالخارج"
أجلسوهم في أكبر قاعات القصر، تركوهم ساعات،حتى كلت نفوسهم....فُتحت جميع أبواب القاعة، حاصر رجال قبائل (المالفيو) الأمراء العزل، وقتلوهم بدون مقاومة تذكر.. نظفوا المكان، ثم اعتلى (مالدينو) العرش.

***

ماذا ستفعل بهذا الصبي يا (زارونكي)؟ تخلعه؟ وتُؤلب الأمراء والناس عليك؟.. آه يا (زارونكي).. صبي في الرابعة عشرة من عمره بعد أن ترسخ قدماه في حكمه يعطيك الأوامر.. اخلعه وتحمل العواقب، ولكن المسئولية ستتعلق بعنقك ولن تستطيع التنصل منها، صبي نبت عضوه البارحة يقلب رأسك وحياتك رأسًا على عقب، بالأمس وأنا أحدثه عن أحوالِ الرعية حدَّق في نهد الخادمة التي أتت لنا بالشراب وتابع أفخاذها الرجراجتين عند انصرافها وكأني لا أجلس معه.. آه وجدت الحل، أغرقه في اللذة، أُوحي له أن السلطة تعني التفرغ لمضاجعة النساء.. استدعى (زارونكي) الحراس.

- ائتوني بـ(بركات) في التو والحال.

ابتسم عند رؤيته لـ(بركات)، وفتح ذراعيه، واحتضنه.

- أفتنا يا (بركات) في رجلٍ يريد أن يصبح فحلاً ولا يكلُّ من مضاجعة النساء.

انتشى (بركات).. آه منكم أيها الأمراء! تحملون أعضاءكم على أكتافكم، جميعهم يتمنون رضاك يا (بركات)، لو أمرتهم بتقبيل قدميك لفعلوا.. أمال عمامته للوراء:

- قضيب الضبع يجفف ويسحق ويستف منه قدر دانقين، فإنه يهيج شهوة الوقائع بحيث لا يمل النساء ولو أتى عشرين امرأة، أما خصية الذئب تؤكل مشوية تهيج الباه، ومن أخذها معه يأتي النساء كثيرًا، وعليه بالسذاب والسمسم المقلي والشلجم المطبوخ، وجلد الضب يتخذه طرفًا للعسل ويلعقه ويطلي قضيبه بدم فأر، ويعلق في عنقه قضيب كلب جاف وقلادة من حجر الباءة.

انفرجت أسارير (زارونكي).. وألقى بصرر النقود لـ(بركات).

- أفتنا في طريقة سحرية للقتل.

أطرق (بركات) مفكرا.. ابتسم.. قال بثقة.

- بيش، نبات ينبت بالهند، الدانق منه سم قاتل، تُربى الفتاة من طفولتها به، وذلك أن يفرش تحت مهدها مدة، ثم فراشها مدة، ثم ثيابها مدة، إلى أن تأكل منه ولا يضرها، ثم ابعثوها لمن تريدون قتله فإذا واقعها مات.

***

ربت (زارونكي) على كتف (أنتروفك)، وأعاد لمسامعه قصة جده السادس (مالدينو) وكيفية استيلائه على العرش، لم يكن مثله، لم يستطع تجاوز الاثنتين، أما هو فيضاجع خمسة.. ابتسم:

- الفضل كله يعود لوصفاتك.

في قرارة نفسه أقسم على جعلهن ستة؛ ليصبح أعظم إمبراطور في العالم وتعلق ذكراه بالأذهان، استأذنه (زارونكي).. حدَّق (أنتروفك) في النهد النافر، أمر الحراس بالخروج، ابتسموا، فابتسمت الخادمة لمعرفتها بما يدور في خلد (أنتروفك).

- اسمك.

- (نجوى).

أمرها بالاقتراب...اعتصر ثدييها، حلب شفتيها، افترشا أرض القاعة وغابا عن الوعي ينهلان من اللذة دون كلل.

***

ماذا ستفعل يا (زارونكي) بهاتين الحبلتين؟ تقتلهما وتُؤلب الأحمق (أنتروفك) عليك..؟ لا تستطيع تركهما حتى يلدا، يكفيك أحمق واحد ولتكن ولاية العهد لولدك..العاهرتان تكتما الأمر، أصبح إسقاطهما عسيرًا , وقتلهما مستحيلا لن يدعك (أنتروفك) تنجو بفعلتك، يجب احتواء الأمر قبل أن يصل للفتى، أقنعه بضرورة إبعادهما لمصلحته حتى لا يغضب العامة من أمر انجابه من أختين بدون رابطة زواج...ومصلحتهما لكيلا يفتك العامة بهما, وأذا أراد لقائهما يأمر بأحضارهما وسيحضرا صاغرتين، ثم أزوجهما خادمين وأهديهما الخمسة عشر آلاف فدان الواقعة وراء الجبل مناصفة؛ فأنا غير قادر على السيطرة عليها.. ينهبها النائب...لم ينتبه (زارونكي) لدخول أحد الحراس عليه وهو شارد.

- سيدي، تعاظمت ثروة (سمعان) التاجر.

ببطء عاد (زارونكي) لعالمه...حدق في وجه الحارس مليا...ثم قال ببطء.

- أرسل له بيشة ثم صفٍّ ثروته وأدخلها الخزانة.. أسرع في طلب (بركات).

انصرف الحارس لتنفيذ الأمر, ورحل (زارونكي) مرة أخري عن عالمه, وقف وحيدا في باحة حكم (انتروفك) الموحولة.. عند وصول بركات... نزل(زارونكي) من مقعده المرصع بالتوتيا والبسنذ والسامور والشياطين والعاج الذي صنعه خصيصا ليكون أشبه بكرسي العرش، واحتضن (بركات).

- مالي أرى الحزن في وجه سيدي؟

- آه يا (بركات).. الهموم . الهموم.

- عليك بالقرنفل، فرائحته تقوي الدماغ البارد وتقوي القلب وتفرحه.

- (بركات) أيها الحبيب، أفتنا في رجلٍ يريد امرأته إذا جومعت لا تحبل.

أمسك (بركات) طرف ردائه في زهو، وشد قامته في اعتداد، ابتسم، وقال بثقة:

- فلفل، شجرة تنبت بمليار بالهند، وهي شجرة عالية لا يزال الماء تحتها وهي عناقيد، إذا حميت عليها الشمس انطبقت على كل عنقود منها أوراق حتى لا تحترق، وهي مثل شجرة الرمان، وبين الورقتين عنقودان منظومان بالفلفل، وعنقوده في طول الإصبع، وهو يخفف المني ويبرزه، إذا احتملته المرأة بعد الجماع منع الحمل، أما القنبيط إذا احتملته المرأة بعد الجماع أفسد المني، ودم الأرنب إذا شربته لا تحبل أبدًا.

***

تهشمت الزروع تحت وطأة اقدام الجماهير الغاضبة .. لم يتمكن الحراس من السيطرة عليهم كالمعتاد.. قتلوا جميع أفراد الأسرة الحاكمة، لم يتبق إلا الإمبراطور، اقتحموا القصر، حطموا كل شيء، اقتحموا الغرف، بقي القليل من الغرف، داهمهم اليأس.

- هرب.

فتحوا أحد الأبواب، وجدوا الإمبراطور يضاجع إحداهن، غائب تمامًا عن الوعي. هوى السيف على وسطه فشقهما.

***

- يجب أن نسترد جميع الأراضي التي بعثرها هؤلاء الرمم.

(2)

"عباس القديم"

التفت (عباس) لمصدر النداء بفزع فصوت المنادي يشبه صوته تماما...وجد بقية العبيد بعيدا عنه منهمكين في عملهم...قرر عدم الاهتمام والعودة للعمل.

"بالرغم من هرمك تعمل بأقصى طاقة وجهد، وكأنك لا زلت فتيًّا. فمن لا يعمل لا يأكل".

التفت (عباس) مرة أخري لمصدر الصوت...واتسعت عيناه في ذعر ...فالذي يحدثه هو (عباس القديم) نفسه وكأنه ينظر في مرآة لاتستجيب لاؤامره...الابتسامة التي بلعت وجه (عباس) ضاعفت رعب (عباس).

"أمازلت تخشى قوانينهم؟ عندما فرَّ الجميع اختبأت خوفًا من رصاصهم، الآن تخشى سياطهم"

صوت طرقعة السوط علي جسد (عباس) جعلت جسد (عباس) يهتز من كثرة الضحك حتى كاد يقع أرضا من الضحك ودمعت عيناه من شدة الضحك.

- عد إلى عملك، أم أنك لم تعد قادرًا عليه؟

همهم (عباس) بكلمات غير مفهومة, وعاد لعمله صاغرا مخافة العقاب.

"ألم أقل لك أنت لن تحتمل قسوتهم، تحاشاهم"

هوى (عباس) بالفأس، عزق الأرض، فتنفست، أزاح (عباس)العرق عن جبهته وتجاهل (عباس) (عباس) الذي ملأ المكان بضحكاته الشامتة.. طرقات على كتفه.. برعب نظر خلفه.

" أرأيت؟ لم ترفع إصبع رفض في وجهه؟ اعتدت الذل وعشقته، ستظل مسلسلًا بأغلال الخوف"

داعبت أشباح الدموع عين (عباس)، طالب (عباس) بالابتعاد، فرفض، أخرج لسانه، رقص.. بغيظ أطبق (عباس) على عنق (عباس)، والتحم معه.. ثم عقد حاجبيه، ألقى الفأس, وصرخ.

- طالبوا بحقوقكم، لا تصمتوا على إهانتكم.

تجمع حوله كثيرون، انتشى..

"أنت زعيمهم الآن، تحرك لتكن أهلًا للمسئولية، لن أصمت أبدًا بعد اليوم"
ارتبك المراقبون الصغار، وتسمروا...ناوش المتمردين المراقبين الصغار حتى اصطادوا أحدهم، بغل السنوات والذل ضربوه.. فابتعد باقي المراقبين بخوف.

***

اقتحم (مساعد) الاستراحة بعنف، لسعات السياط نبهته للخطأ الذي أرتكبه، اعتذر (مساعد).. عقد (نافع) حاجبيه، ولوح بسوطه مهددًا وقال:
- ماذا تريد أيها الغبي؟
بخوف تابع (مساعد) حركات السوط، وارتبك.. تسرعت بإسراعك بالحضور.. لماذا لم تترك غيرك يبلغهم؟.. زمجر(نافع).
- إنهم يتمردون، اشتبكوا معنا وقتلوا أحدنا.
ابتسم (نافع) في ظفر..
"لقد واتتك الفرصة يا (نافع)، إياك أن تخسرها، يجب أن تطفو على السطح وتزيح هذا الملاحظ الأخرق من مكانه"
انتبه لنظراتهم المستنكرة لابتسامته الظافرة، ارتبك، وابتلع ابتسامته في سرعة، قال (نافع) بغضب:
- ومن ذا الذي يجرؤ على التمرد؟
- (عباس القديم).
ألجمته الصدمة وزحف الوجوم إلي وجهه فلم يتوقع (نافع)أن يقوم (عباس القديم) بأي تمرد طيلة حياته فهو يمتاز بالخنوع الشديد وعدم الجرأة علي التمرد أو مخالفة الأوامر. "ضاعت آمالك يا (نافع)، (مساعد) الحقير الذي يخشي أنفاسك يتلاعب بك"
قال (نافع) بغضب:
- أتهزأ بنا؟
ثم ضرب (مساعد) بالسوط في غضب...لسعات السوط أرجفت (مساعد)، تراجع للخلف وظهرت علي وجهه علامات الألم، امتزج صوت (مساعد) ببكاء:

- أقسم أن (عباس) هو الذي حرضهم على التمرد.
مزق الملاحظ جدار عزلته، وتسأل عن مطالبهم.. قاطعه (نافع) وقال بحزم.
- الوقت لا يسمح بإلقاء الأسئلة.
ثم تحرك، وتناول أسلحته، وسار حثيثًا باتجاه الخارج، استوقفه الملاحظ.
- انتظر يا (نافع) أوامر السيد.
- لا مجال للتأخير، انتظر أنت، أنا المسئول عما سيحدث.

***

امتطى (نافع) جوداه، نخسه، اخترق جسده الهواء بقوة, وحلقت روحه وهبطت في أرض أصبح فيها الملاحظ... عندما أصبح بمواجهة (عباس) شد اللجام، جال (نافع) ببصره بينهم، وتسأل مع من يتحدث؟... انتفخت أوداج (عباس) .
" لم أكن أعلم أن الشجاعة ستجعلهم يحترمونني هكذا، يا ليتها خرجت قبل الآن بكثير"
قال (عباس) بخيلاء مشيرًا للجميع:
- جميعنا.
أرهف (نافع) السمع ليقيس المسافة الباقية بينه وبين الملاحظ وباقي المراقبين الذين تبعوه صاغرين لأرض المواجهة.
" صوت الحوافر بعيد، تريث قليلًا"
ابتسم (نافع).
- كيف؟ يجب أن تختاروا من يمثلكم.
في صوت واحد رشحوا (عباس)، رفض (عباس) التحدث باسم الجميع، هو يعرف مشاكل الرجال جيدًا، تحيط به، يشعر بها جاثمة على صدره، تخنقه، قرر التحدث باسم الرجال، طالب بمعاملة آدمية، تقليص ساعات العمل، تحديد الخطأ والجزاء.. تكلمت إحدى النساء، طالبت بألا يكنَّ مشاعًا للمراقبين لتنقيح أنسابهم، طالب الأطفال بتقليص ساعات عملهم عن ساعات عمل الرجال، بحقهم في اللعب، بتحديد حد أدنى لسن العمل..صوت حوافر الجياد اقتربت أكثر وأكثر، استل (نافع) سيفه من

غمده بسرعة وهوى به على عنق (عباس)، ثم طوح سيفه وضرب هنا وهناك، تساقطوا حوله العبيد كالذباب، ساد الهرج والمرج، هاجم العبيد (نافع)، وصل الملاحظ وباقي المراقبين وانخرطوا في المعركة، انطلقت الرصاصات تحصد العبيد الواقفين أمامها، اخترقوا فلول العبيد شاهرين سيوفهم...عفرت وجوه بالتراب، أجساد واهنة تزحف، هرستها سنابك الخيل.

***

بإعجاب نظر (مساعد) لوجه (نافع) المكسو بالغبار، وسأله عما سيفعلونه بالجثث.

- ألقوها في البحر.

بلغ (مساعد) الأوامر، أرغموا العبيد على حمل قتلاهم على أكتافهم وإلقائهم في البحر...لوح الملاحظ بيده محذرا وقال.

- اعلم جيدًا أنا لست مسئولًا عما حدث، الخسارة كبيرة.

هز (نافع) رأسه باشمئزاز.

" أيها الجبان لا تستحق أن تصبح حاملًا لأحذيتي"

هرول (سليم) باتجاه (نافع) وقال بصوت متهدج.

- سيدي أحدهم يتنفس.

ببرود أمره (نافع) بإلقائه في البحر.. كسا ثوب الاستنكار وجه (سليم)، أرتطام سوط (نافع) بجسده مزق ثوب الاستنكار بعنف وألبسه مكانه ثوب الألم والختوع.

- نفذ ما أمرتك به.

لم تقو قدم (سليم) على التحرك.

"من الممكن أن تكون مكانه"

عاجله (نافع) بجلدة أخرى، وأشار حوله وقال:

- ألا ترى القتلى في كل مكان؟ لمَ كل هذا الاستنكار من أجل أحدهم سيجشمنا عناء علاجه؟

أمسك (نافع) بتلابيب (سليم)،و جره، أجبره على حمله، سار خلفه يعالجه بجلدة كلما أحس فيه الوهن، هدأ عندما ابتلعت المياه الجثث..اخترق (قاهر) المكان في موجة عاتية من الغضب.
- ما الذي يحدث هنا؟.
هربت الدماء من وجه الملاحظ، تلعثم، تنصل، أشار لـ(نافع).
- هو المسئول عما حدث.
حافظ (نافع) علي هدوئه وقال بثقة.
- سيدي كانوا يحاولون التمرد، وإذا انتظرنا حتى نخبرك فلن نتمكن من إخمادهم أبدًا.
لاحت بشائر الرضا على وجه (قاهر) المكتظ، ربت على كتف (نافع):
- لك عندي مكافأة كبيرة، أكمل عملك.
انصرف (قاهر).. شد الملاحظ قامته، همَّ بإصدار الأوامر.. ابتسم (نافع)، أزاحه جانبًا:
- إنه يعنيني أنا
أحمر وجه الملاحظ غيظا ونظر لـ(نافع) شزرا, لم يبالي (نافع) بنظراته ... وأمر بجمع العبيد.
- الآن ساعة الحساب.
- لم أكن معهم.
أعطى (نافع) الأوامر .. دارت آلات التعذيب... وسط ركام الصرخات تاهت الأصوات المستنكرة.

(3)

اغتسل، دعك جسده بقوة لمحو آثار اللقاء، وضع يده علي الحائط وطأطأ رأسه لاحت له ليله الأمس... عندما وصل للهزة وارتعش بدأ يسترد عقله، شعر بالخطأ يحيط به، يخنقه , مكث لحظات في فراشه يتطلع للسقف في حيرة وحزن, ثم نهض وألقي نظرة ألم علي جسد (علياء) العاري.. لم يتحمل شعوره بالخطأ شعر برغبته في نسيان ما حدث ذهب لغرفة مكتبه واحتسى زجاجة خمر أعادت لذاكرته ذكرى والدته التي تؤرقه، تذكر ما حدث مع (علياء) شعر برغبة عارمة في إذلالها، أيقظها، بصوت ناعس سألت عن سبب إيقاظها في هذه الساعة، طلب مضاجعتها في دبرها، استنكرت، صمم، وافقت إرضاء له، يشعر وكأنها عاهرة، لا يشعر بالعاطفة، وكأنه يفاوض على سلعة، أنتهي من استحمامه ووضع جسده في الروب الحريري، ذهب لغرفته لإرتداء ملابسه, استقبلته (علياء) التي لم تغادر الفراش بابتسامة, سألته عن وجهته , لم يرد, لم يطق النظر في وجهها، ارتدى ملابسه في عجالة، أمر السائق بتجهيز العربة، شعر بأنفاس والدته تغرق المكان، سعل، قطع أروقة القصر في سرعة، دخل العربة، أغلق الباب، شد السائق اللجام برفق، تحركت الجياد بتؤدة منكسة رؤوسها، لن ينسى أبدًا ذلك اليوم، ما دار بداخله، كل خلجة، كل حرف .. بدأ الأمر ببرقية تخبره بوفاة والده، حزن، أخبر (علياء)، صارحته بحملها، أقنعته بعدم أهمية التعليم، هو يملك الكثير من الأموال وأمواله بحاجة لرعايته، تزوجها، عاد للضيعة، شعر بتبرم والدته من وجوده، كذب حدسه..أثناء جلوسه في غرفة المكتب طرقت إحدى الخادمات الباب برفق، دخلت متسللة، أخبرته أنها صديقة (وفاء) وأن (وفاء) عشيقة والده ماتت الأسبوع الماضي، كانت تشعر بقرب نهايتها، وجدوا السيد (التلاوي) متوفىً في تلك الغرفة جالسًا على مكتبه، كانت تشك أن الملاحظ قتل السيد لاكتشافه سرقاته.. لم يصدقها (قاهر) ,و قرر مراجعة الكشوف، وجد بها تلاعبًا لم يحاول إخفاءه وكأنه يعتقد أنه أبله ولن يكتشف الأمر، لم يكتشفه فعلًا لولا الخادمة، استشاط (قاهر)غضبًا، حمل سلاحه، واصطحب معه حارسين لحمايته من غدر الملاحظ ...

طرق باب منزل الملاحظ بقوة، خرج (الملاحظ) مرتبكًا وهو يرتدي سترته، هم (قاهر) بالدخول فمنعه الملاحظ , أزاحه (قاهر) بعنف، ودخل رغم محاولة الملاحظ المستميتة في منعه من الدخول، اقتحم غرفة نومه، اصطدم بوالدته عارية، تسمر (قاهر) من هول المفاجأة، حاولت (نجوي) ستر نفسها بيدها، أمرها بارتداء ملابسها والذهاب للقصر.. أمر الحارسين بقتل الملاحظ، خنقاه، وبمجرد تركهما الجسد أطلق عليهما النار مدعيًا أنه ضبطهما يقتلان الملاحظ الذي اكتشف سرقاته وذهب لكي يحاسبه، يبدو أنهما شريكاه في السرقة واختلفوا.
بعد ثلاثة أشهر من حبسه لـ(نجوي) ومنع الرجال من الاقتراب من غرفتها استبدت بها الرغبة، لم تفلح محاولاتها في المقاومة، حاولت الاعتداء علي (قاهر), تمكنت من نزع سرواله، أفلت من بين يديها بصعوبة.. أعد وليمة ضخمة له ولوالدته فقط.
- ستأخذين حريتك.
انتهيا من تناول الطعام، جلسا أمام المدفأة، سرى السم بجسدها، شعرت بأحشائها تتمزق، أمسكت معدتها، صرخت، أفرغت ما في جوفها، ابتسمت:
- قتلتني، كنت أتوقع هذا، أريد أن أقص عليك قصتي فاسمعها للنهاية ولا تقاطعني.. بصعوبة وبعد العديد من الوسائط لوصف جمالنا تمكنت وخالتك من العمل خادمتين في قصر الإمبراطور (أنتروفك)، كان مولعًا بالنساء، عاشرني وعاشر خالتك، أحيانًا كان يجمعنا على فراش واحد، عشقت الجنس، كنت أمارسه كل ليلة، وأحيانًا أكثر من مرة مع أكثر من رجل، جميع الخدم في قصرك عاشروني، منهم من فعلها مرة، ومنهم من فعلها مرات.. حاولت إغواء (التلاوي)، رفض وأخبرني أنه لا يشارك سيده في شيء، حملنا من الإمبراطور، أخفينا الأمر، كنا نخشى بطش (زارونكي)، عندما علم زوجني (التلاوي) وزوج خالتك (راغب)، أهدانا مناصفة خمسة عشر آلاف فدان وسفينتين كبيرتين، حتى الآن لا أعلم لماذا فعل هذا؟ ظل والدك يستولي على القطعة تلو الأخرى حتى وصلت عشرة آلاف فدان، لم تجد (عزيزة) بدًّا من بناء سور ضخم يتوسطه بوابة

ضخمة يفصل بيننا وبينهم، أقسمت على الوفاء له، لم يقربني، حاولت إغواءه، تارة بحرارة وتارة أخرى ببرود، لم يحرك ساكنًا، اعتقدت أنه عاجز حتى رأيته يعاشر الخادمة، سألته: لماذا تذهب للأخريات؟أجاب ببرود: لا أشارك سيدي في ملكه. نشأت بيني وبين الملاحظ علاقة.. أخبرني (التلاوي) أن الملاحظ يسرقه. لا أدري أكان يعلم بعلاقتنا أم لا؟، أخبرت الملاحظ واتفقنا على قتله، خنقناه في مكتبه، ثم قتلنا الخادمة التي فضلها عليَّ.. في البداية عندما حضرنا إلى هنا قطنَّا في منزل نائب (زارونكي) الذي غادر الضيعة بالطبع، كان أهل الضيعة يملكون المنازل فقط، كان يستأجرهم للعمل في الأرض بأثمان بخسة، ثم يبيعهم الغلال بأثمان باهظة، تراكمت عليهم الديون، تملك منازلهم وأصبحت الضيعة كلها ملكًا له.. أنشأ القصر بعدما فرغ من بيع الحبوب التي أنتجتها الأرض، اشترى الكثير من المدافع الضخمة ووجهها نحو البحر والجبل.. ضاق الناس ذرعًا، أثناء انتقال الكثير منهم للجانب الآخر ساد الهرج والمرج، أبحروا نحو البحر، أطلق الحرس الخاص لـ(التلاوي) النار، لم يقتلوا الكثير، اضطر بالرغم من شحه إلى الاستعانة بالكثير من المراقبين والحرس، أصبحت عملية الانتقال تتم تحت حراسة مشددة، قَل الفلاحون، اتفق مع بعض العصابات على خطف الكثير من الناس مقابل مبالغ طائلة.. أخبرني يا (قاهر) هل تعشقك (علياء)؟ لا أعتقد؛ فأنت بدين قبيح كوالدك، هي تعشق مالك.. كنت تعاشرها قبل الزواج، أليس كذلك؟ من ذا الذي أدراك أنها لم تعاشر غيرك،، وأن الطفل الذي بداخلها هو ابنك؟.
أفرغ ما في جوفه، أفرغت ما في جوفها للمرة السادسة، وسكت اللسان عن التحدث.. بصق على جسدها الساكن الغارق في القيء، وقال بغيظ:
- سأقتل كل من وضع يده عليك أيتها العاهرة.
أمر (قاهر) بإخراج جميع الخدم خارج القصر وتقييدهم.
- وضعوا السم في الطعام، ماتت السيدة (نجوى).. لولا جسدي القوي لكنت في عداد الأموات.
بصرامة سألهم عن واضع السم، تدفقت دموعهم في غزارة، لجمت ألسنتهم، فقدت أعصابهم السيطرة على نفسها، لم تقو أقدامهم على حمل

أجسادهم المثقلة بالرعب، زحفوا، أحذية المراقبين الغليظة ضغطت على رقابهم، فتحوا أفواههم عنوة، قطع ألسنتهم واحدًا تلو الآخر.. انتشى لمرآته عيونهم المذعورة المحدقة بالمسدس المصوب نحوهم، متابعتهم يده التي تداعب الزناد.. قصر العمل داخل القصر على النساء ماعدا الحديقة..لاح له أول لقاء بـ(علياء) ...تعلق بصره بالفتاة الجميلة التي تقبل عليه بابتسامة كبيرة، صافحتهما.

- (علياء).

- (قاهر).

- أنت تشبه الإمبراطور السابق (أنتروفك).

ابتسم (قاهر)، أشار صديقه ناحيته، قال:

- إنه من الأثرياء، يملكون عشرة آلاف فدان.

ارتفع حاجباها في دهشة، انخفض أحدهما وتبعه الآخر بعد قليل.

ترقرقت عيناه بالدموع وقال بمرارة:

- كل النساء عاهرات حتى أمي، بل هي زعيمة العاهرات.

عض شفته السفلى بمرارة، نظر يمينًا، اصطدم بها، أمر السائق بالتوقف، تأملها.. الملابس المهلهلة القذرة المصفرة باهتة الألوان، الوجه الأبيض المتسخ ذو العظام البارزة قليلًا، بقايا النور والبراءة المتراقصان عليه، الشعر الأحمر الملتصق بالجبهة الملبدة بالعرق والغبار، فمها الصغير، أنفها الدقيق، عيونها الواسعة، أشياء كثيرة تشي بأنها كانت تحمل يومًا الكثير من الجمال، تحتاج فقط للاستحمام واستبدال هذه الملابس لتعود لسيرتها الأولى.

عندما بنى الملحق في الفناء الخلفي للقصر سألت (علياء) عن سبب بنائه، أجاب: أبغي القليل من الراحة، اندهشت لعدم كفاية غرف القصر لراحته، يحتاج للراحة قليلًا بعيدًا عنهم، بعيدًا عن الجو المعبق بالأنفاس التي تذكره بالأحداث التي تؤرقه، أحيانًا يشم رائحة فم والدته، يراها تعاشر أحدهم وتنظر له في شماتة وتضحك بميوعة، يحتسي الخمر حتى يسقط في النوم ساعات طويلة، يفيق تحت وطأة الشواكيش الضخمة التي تطرق عقله بقوة.. لا تحب (علياء) إزعاجه، دائمًا تتركه يفعل ما يحلو له،

يتمنى لو تتشاجر معه ولو لمرة واحدة، تسبه، تشعره أنها لا تتملق، أنها تحتمله حتى وفاته وبعدها تأخذ كل شيء.
"آه منكن أيتها الجميلات، أقسم أن المرأة التي تجمع القطن هناك عاهرة، خانت زوجها كثيرًا، يجب إذلالكن بمضاجعتي لها إذلالًا لها ولـ(علياء)"
استدعى الملاحظ، عاجله الملاحظ بحاجة العمل الشديدة لدفعة جديدة من الرجال بدلًا من الذين تم قتلهم لقمع عصيان الأسبوع الماضي.. قال (قاهر) بإعجاب دون أن يبعد نظره عن (صبرة):
- لقد استطاع (نافع) أن يخمده في لحظات.
سكت هنيهة ثم استطرد قائلًا:
- لقد عينته نائبًا لك.
امتقع وجه الملاحظ، وسقط قلبه بين قدميه، بحث سريعًا عن طريقة يقصي بها (نافع)عن طريقه فلم يجد.. قبض على عين (قاهر) المتعلقة بـ(صبره)، لمعت عيناه، المرة الأولى التي يراه يحملق في النساء، لماذا لا يعرض عليه إمكانية مساعدته في الحصول عليها؟ وبهذا يكسب نقطة عنده.. ابتسم الملاحظ ابتسامة لزجة وقال بخبث:
- أتريدها سيدي؟.
- اذهب بها للخدم لكي ينظفوها ثم ائتني بها في الملحق.
- كما تأمر يا سيدي، اذهب أنت واسترح وستأتي إليك راكعة.
ازدرد لعابه، أشار بيده محذرًا، وقال:
- إياك والتأخير.
بعد انصراف (قاهر)، اقترب الملاحظ من أذنها، وقال بصوت يشبه الفحيح:
- ابتسم لكِ الحظ، سيدي يريدك.
انتفضت (صبرة) واتسعت عيناها في ذعر، أمسك ذراعها بقوة، صرخت:
- (سليم) النجدة.
اندفعت الصرخات بسرعة تشق المسافة الضئيلة الفاصلة بينها وبين(سليم)، مزقت أذنه، انتصب، لم ير سوى يد الملاحظ المتشبثة

بذراع زوجته ويجرجرها بعنف، امتقع وجهه، يؤمن بانتهاء الأمر، هرول في محاولة يائسة لنجدتها، مزق سوط الملاحظ وجهه، تدفقت الدماء الساخنة علي وجهه، تأوه، وضع يسراه على موضع الضربة، وتشبثت يمناه بزوجته، وهوى بقدمه الثائرة على صدر الملاحظ فسقط على الأرض يتلوى.. احتضنها، حاول عبثًا إيقاف دموعها، قبَّل جبينها، انتصب الملاحظ، نفض عن ملابسه الغبار، نادى المراقبين وأمرهم بتأديبه، التف المراقبين حول (سليم)، أشبعوه لكمًا وركلًا، خارت قواه وسقط على الأرض.. ألقى (سليم) على زوجته نظرة أخيرة بعين تقاوم الإغماء، مدَّ يده وكأنها ستمتد وتبعد عنها كل المخالب التي تحاول أن تنهشها.. حلقت روحه, استقلت آلة الزمن وضغطت علي أزرارها لتقله لقريته منذ عدة سنوات خلت.. وعد زوجته بنزهة فوق صهوات الجياد في الجنة الموجودة عند أطراف القرية..استيقظت مع شروق الشمس، غسلت وجهها، وأعدت إفطارهما، هزته، تمتم بكلمات غير مفهومة حاولت عبثًا فك طلاسمها، ابتسمت وعاودت الكرة، بصوت ناعس توسل أن تتركه ينام ولو لساعة أخرى، توسلت، أرغمت عينيها على سكب بعض الدموع، استيقظ على مضض تحت وطأة أصابعها التي لعبت بقوة على أوتار قلبه.. أعدت طعامًا وشرابًا يكفيهما يومًا بأكمله، أعدَّ الجياد وخرج من حظيرته الملتصقة بظهر المنزل ساحبًا خلفه الجوادين، اجتاز حديقته الصغيرة، وانتظر قليلًا بالخارج ثم هتف في ضيق:

- هيا يا (صبرة)، ألا يكفيك إيقاظي في هذه الساعة المبكرة؟ لقد مللت الانتظار.

خرجت، أغلقت الباب خلفها وقالت مبتسمة:

- أتسمي الدقائق القليلة انتظار؟

أشاح بيده وغمغم ضاغطًا على أسنانه.

- أنا المخطئ من البداية.

عقدت حاجبيها ومالت بأذنها ناحيته مصطنعة عدم السماع وقالت:

- ماذا تقول؟.

بنفاد صبر قال:

- لا شيء.
ضحكت ضحكة مرحة أنعشت خلايا مخه المتكاسلة وقالت:
- لقد سمعتك.
احتوى وجهها بنظرة حنون، وابتسم قائلًا:
- ارحميني أرجوك.
نبهها لخلو الطريق من المارة، ابتسمت واصطنعت عدم السماع.. بمجرد وصولهم أصرت أن تقيم معه سباقًا، ساعدها على امتطاء الجواد، وكالمعتاد تعمد الخسارة، قالت بخبث:
- أتعرف ما الذي يعجبني فيك؟ تعمدك الخسارة كل مرة.
صاح مستنكرًا:
- فقط؟
ضحكت بميوعة وواصلت سيرها صوب المجرى الصغير المخترق المرعى، لحق بها، ساعدها على الهبوط، التصق بها، أزاحته برفق، نظر إليها بغيظ فأشاحت بوجهها بعيدًا.
- وإيقاظي في الصباح الباكر ألا يعجبك؟
جلست على الشاطئ وداعبت الماء بقدميها،، جلس بجوارها ووضع يده فوق كتفها، قال بخبث:
- أنا أنفذ لك جميع رغباتك.
ضحكت ولم تجب.. برز من العدم ثلة من الرجال ملثمين، أحاطوهم، انتفضت، التصقت بظهره، حاول أن يحتويها بيديه، أن يدمجها بجسده، نواياهم واضحة، لن يدعهم يمسوها، سيموت قبل أن يحدث هذا، أخرج ما معه من نقود، سيجعل العنف خطًّا أخيرًا، للدفاع، عرض النقود مقابل أن يتركوا زوجته ترحل، أخذها أحدهم بعنف، أمرهم زعيمهم بتقيدهما، استعد (سليم) للمعركة، اقترب منه أحدهم، صفعه، اشتبك معه، تكاثروا عليه، أشبعوه لكمًا وركلًا حتى فقد وعيه.. شيئًا فشيئًا عاد إليه وعيه مصحوبًا بصداع عنيف، تحسس بقايا الدماء المتخثرة المتناثرة على وجهه، عبثًا حاولت (صبره) إزالتها، بدهشة تفحص المكان الذي يشبه زنزانة كبيرة يتناثر فيها الرجال والنساء، رفع رأسه عن فخذ زوجته

الجالسة ملاصقة للجدار، تأمل وجهها الملائكي النائم المشبع بالغبار والتعب وملامح أشياء حاول جاهدًا طردها من ذهنه، أيقظها، وتسأل.
- أين نحن؟.
- لا أدري، بعد أن قيدونا ووضعونا فوق جوادينا ساروا بنا مدة طويلة ثم ألقوا بنا في هذا المكان مع هؤلاء.
- هل لمسك أحدهم؟.
هزت رأسها نافية، تنفس الصعداء، اعتدل وجلس ملاصقًا لها، سألته عن مصيرهما، أجهشت بالبكاء عندما ابتلع كلماته وأطرق بتخاذل وخجل، احتضنها وربت على ظهرها برفق، قال بحزم:
- لا تخافي فأنا لن أصمت.
سكت هنيهة، طبع قبلة حنونة على جبهتها، وابتسم قائلًا:
- مهما حدث لنا فنحن معًا، وسنظل معًا، وسنخرج معًا..قريبًا.
لم يكن عرافًا، فلو علم الغيب لتمنى أن يقضي بقية عمره في هذا المكان أو افترقا لكيلا يرى ما سيحدث.. يزداد عدد المسجونون كل يوم.. يدخل أحدهم، يضع الفتات من الطعام ويخرج دون أن يروي العقول الظمأى لإجابة تطفئ النار المضرمة في الصدور، يلوك المسجونون الطعام الرديء دون شهية، فقدوا نصف أوزانهم، ونسوا طعم الطعام الحقيقي، أحيانًا يسقط أحدهم، يلتصق الآخرون بالجدار ويصرخون، يدخل الرجال ويحملونه للخارج.
في اليوم الأخير من الأسبوع الثاني لقدومهما أخرجوا الجميع معصبي العيون، خُلعت العصابات في عرض البحر، اختلفت أجساد الملثمين المدججين بالسلاح.
عندما علمت (علياء) بوجود (صبرة) في القصر، مزقها الغضب وأعدت نفسها للاشتباك مع (قاهر)، ذهبت إليه في الملحق وسألت بصرامة.
- منذ متى تعشق النساء؟.
كم تمنى أن تقف معه في هذا الموقف، أقسم على ترك الأمر لو اشتبكت معه، ببرود أجاب محاولًا إثارتها:
- منذ الآن؟.

استكانت وهدأت ملامحها، كتمت دموعها، ابتسمت، وانسحبت تاركة المكان في صمت.

***

سلمت (صبرة) جسدها للخادمات، خلعن عنها ملابسها الرثة، غسلن جسدها بالصابون المعطر عدة مرات، نزعن الشعر المنتشر في الإبط والعانة، دعكن كعبيها جيدًا لإزالة القشف المتراكم هناك، نظفن شعرها الحريري الأحمر الغزير، مشطنه، ملئن المغطس بالعطر وأرقدوها فيه، ألبسنها قميصًا أسود حريريًّا عاري الأكتاف، يكشف الساقين المرمريين، اهتاج (قاهر) عندما رأى حلمات (صبرة) البارزة، صدرها النافر، احتضنها، قبلها بشبق، حاولت المقاومة، رفضت ذراعها تنفيذ الأوامر، داعبها، اعتلاها، تشعر وكأن عقلها اشترك معهم في الجريمة، لم تقتصر على التسليم، لقد مزقتها الرغبة و قبلته، داعبته كثيرًا، لقد أتت من الحركات ما لم تأته مع (سليم)، حاولت أن تقنع نفسها أن عقلها خشي مضايقة السيد فهي تتذكر تحذيرات الملاحظ بعدم مضايقته، الفراش الوثير الذي شعرت أنها تغوص بداخله أرغم جسدها على إفراز الخدر.
لملمت بقاياها المحطمة في صمت دون أن تجرؤ على إظهار الألم لكي لا تعكر مزاج (قاهر)، خرجت يعلو وجهها ابتسامة جامدة، حل محلها أشباح الدموع عندما تجاوزت الغرفة تاركة (قاهر) خلفها مستلقيًا على فراشه غارقًا في بحور الارتياح.

***

جلست (صبرة) بجوار (سليم) على الفراش المكون من كتلة مستطيلة من الطين موضوع فوقها كمية من سعف النخيل المغطى بخرق بالية.. بللت قطعة قماش قذرة، وحاولت عبثًا أن تزيل الدماء من فوق وجهه، قالت بصوت مختنق وهي تصارع الدموع لكيلا تهرب خارجة من مقلتيها.
- لا تؤاخذني، لم يكن بيدي شيئ.
انسابت دموع (سليم) في صمت واحتضنها بقوة، تدفقت دموعها بغزارة، ولم يكن يشق سكون الليل سوى نحيبهما حتى أرهقهما البكاء فناما، وأصبح نهارًا

يعمل.....
ويعمل.....
ويعمل.....
حتى تخور قواه، وفي الليل يولي زوجته ظهره لعل العمل والزمان يدملان جراحهما.

(4)

عندما فتح الخدم أبواب مكان العجائب -هكذا تسميه- تأملت (علياء) بطرف عينيها العسليتين وجه (تيسير) المليء بالبثور، لم تفلح في قمع الابتسامة الظافرة لرؤيتها الحسرة والكآبة تتراقصان على وجه (تيسير).. لطالما شعرت بالنيران المستعرة داخل صدرها لجمالها الطاغي، كانت تعمل نادلة لتوفير النفقات الباهظة للدراسة؛ فالتعليم سينقلها نقلة كبيرة وسيتغير وضعها المالي، كانت تجلس كل يوم في المطعم الذي تعمل فيه وتُغرق في إصدار الأوامر لإذلالها.. كثيرًا ما تتعمد طرح سؤال عن ارتدائها لنفس الفستان طوال العام ، يصفر وجهها وتطرق رأسها خجلًا، تصفعها الاستنكارات بعد رحيلها لتعمدها إحراجها، ببرود وصلافة تصعر خدها ولا ترد.

علمت (علياء) من إحدى صديقاتها بزواج (تيسير) من أحد كبار رجال الدولة في بلاد ما وراء الجبل، ضحكت ضحكة مجلجلة، وقالت بسخرية.

- بالطبع تزوجها من أجل التملق لأبيها ومن أجل أموالها، فهذا الوجه القبيح لا يستحق سوى البصق عليه.

دعتها للعشاء بالضيعة، أسرعت (تيسير) بتلبية الدعوة لترى ما آلت إليه (علياء)، يقولون أن أنيابها سنت، ستنزعهم فزوجها أخبرها أنهم يسعون لاستعادة الضيعة باعتبارها جزءًا منهم.

" يبدو أنك من كسرت يا (تيسير)، كيف لم تسعي للإيقاع بـ(قاهر)؟"

أشارت (علياء) لصندوق زجاجي ضخم تسبح داخله سمكة وجهها كوجه الخنزير وقالت بتعجرف:

- أنها تدعى الأطم، من عجائب بحر الصين.

- قالت (تيسير) بمرارة ودهشة:

- أذهبت للصين؟.

أجابتها بلا مبالاة:

- نعم عدة مرات.

- وأشارت لصندوق آخر قائلة.

- أما هذا النوع من السمك فهو من عجائب بحر الهند، يدعى الكوسج، وهو كالأسد في الماء إذا أدرك سمكة كبيرة قطعها.
وأشارت لقفص حديدي يتقافز داخله نسناس، له أجنحة كأجنحة الخنافس من أصل الأذن إلى الذنب، وقالت:
- إنه من جزيرة راتج في حدود الصين أقصى بلاد الهند.
وأشارت لقفص حديدي بداخله إنسان، من وسطه إلى أسفله بدن امرأة، ومن وسطه إلى فوقه بدنان مفترقان تبدو آثار الحزن على الوجهين المتقابلين، ثم أشارت لدجاجتين إحداهما برأسين والأخرى بأربعة أرجل، ابتسمت (تيسير) وقالت:
- أنت تعشقين كل غريب حتى في الغرام، اخترت أقبح شبان الجامعة، تزوجته من أجل ماله أليس كذلك؟، يقولون إن بلادنا تنظر إلى ضيعتكم على أنها جزءًا منها ويسعون لضمها.
ابتسمت (علياء) بخبث، وقالت ببرود وسخرية:
- أما عن القبح فكثيرًا ما وجد أصحابه من يتزوجهم من أجل مال أو سلطة والد، وبالنسبة للضيعة فلن يستطيع أحد أخذها، أرأيت المدافع المتناثرة على الشاطئ.
طالبت (تيسير) بالطعام فالجوع يمزقها، ثم رحلت بعد الانتهاء منه لاعنة في سرها (علياء)، وأقسمت على عدم العودة لهذا المكان مرة أخرى.

(5)

جلس (عزيز) على المقعد المقابل للمكتب الضخم الذي يجلس خلفه (قاهر)، تناثرت حبات العرق على جبينه، رفع ياقة معطفه لعل اختفاء وجهه خلفها لن يجشمه عناء المواجهة، سيرفع عنه القليل من الحرج ليتمكن من التحدث.

"كيف ستبدأ في عرض طلبك يا (عزيز)؟"

مسح (عزيز) العرق بكفه وقال بتلعثم:

- لقد نصب عليَّ رجل من بلاد ما وراء الجبل وباعني نوعًا رديئًا جدًّا من التقاوي.

ابتسم (قاهر) بسخرية، طأطأ (عزيز) رأسه هربًا من الابتسامة التي تقتله، ثم استطرد قائلًا:

- لم تأت الضيعة بشيء، أرجو مساعدتك.

ربت (قاهر) على كرشه الضخم، واحتضن (عزيز) بنظرة متكاسلة.. كم يتمنى أن يرمي بنفسه في أحضانه ويخبره أنه أخوه ليحمل معه هذا السر الذي ينوء تحته، أرهقه هذا السر، يتمنى نفضه عن كاهله، لماذا يتحمله وحده؟ قال ببرود محاولًا قتل مشاعره الحنونة التي غزت كيانه وأوشكت أن تطغى على صوته.

- موافق، سأعطيك التقاوي.

سكت هنيهة ثم ابتسم بظفر، وثقة، واستطرد قائلًا:

- سآخذ نصف المحصول وأراقب الأعمال في ضيعتك ومسموح لملاحظي الإطلاع على الدفاتر.

وافق (عزيز) على مضض تحت وطأة حاجته الشديدة، وفي قرارة نفسه لعن (قاهر) ألف مرة، لعن الرجل الذي نصب عليه، لعن والدته التي انخرطت في العمل وأبعدته ووالده عنه، لا يدري عن العمل شيئًا، يشعر بسرقة الملاحظ ولكنه لا يستطيع كشفه، بعد قتال مرير تمكنت مشاعر (قاهر) من التغلب على قسوته، على رغبته العارمة في الربح، في بقاء (عزيز) تحت نيره، فنصحه بادخار بعض المحصول من أجل التقاوي، تشممت أنف (عزيز) رائحة لين في لهجة (قاهر) حاول استغلالها فطلب

القليل من الأنفار لأن ضيعته تفتقر إليهم، شعر(قاهر) بمحاولة استغلال (عزيز) للحظة ضعفه فسأله عن الثمن، أجاب أنه سيقوم بتسديده على دفعات.
- في هذه الحالة سيرتفع ثمنهم.
وافق (عزيز)، وقف من مكانه مادًا يده ليصافح (قاهر) لكي ينصرف، بمجرد تلامس أيديهما قال (قاهر):
- ألن تتزوج؟.
في الغرفة السابعة والثلاثين من المجمع (ب) كان ينام على فراشه مرتديًا سروالًا قصيرًا، انحسر بفعل الحركة ليترك فخذه البيضاء المرمرية بدون ساتر، استيقظ على محاولات نزع السروال عنه، صرخ، تكالب عليه شركاؤه في الغرفة، كمموه، نزعوا ملابسه، أرقدوه على بطنه، شدوا ذراعه وقدمه، حاول المقاومة، أن يتحرك، شعر بثقل يستقر فوق ظهره ثم بأحشائه تتمزق، صرخ، ارتطمت صرخته باليد الموضوعة على فمه، تناوبوه، شعر بالدماء الساخنة تجري على جسده، لملم جسده بصعوبة ودلف دورة المياه، استرد عافيته شيئًا فشيئًا وهرب الإرهاق تحت وطأة رذاذ الماء الساخن، قرر إخبار أساتذته.
قبل ذهابه لفصله، ذهب لمدير المدرسة، وقف مليًّا دون أن يدري كيف سيخبره بما حدث؟ شخط المدير، ارتجف وطلب نقله من غرفته لأن شركاءه هناك يضايقونه.
عندما وطأت قدمه أرض الغرفة الرابعة عشرة من المجمع (د) حدَّق مليًّا في شركائه، نفس الوجوه، الابتسامات اللزجة، ما يدور بعقولهم.
" شبهي بأمي وبالٌ عليَّ"
حيوه، تجاوزهم بصلف ولم يرد، انتحى مكانًا قصيًّا، قرر أن يعيش وحيدًا، سيكشر عن أنيابه للجميع، لمن يحاول الاقتراب منه أو مصادقته، انتشر خبر الاعتداء عليه كالنار في الهشيم، كلما مرَّ على مجموعات الصبية المنتشرة هنا وهناك، لاحظ النظرات الجانبية المفعمة بالمعاني، الابتسامات اللزجة المليئة بالرغبة، الإشارات الجانبية، القهقهات، أحيانًا يعرض أحدهم مضاجعته، يشتبك معه، يتدخل

الآخرون لفض المعركة، يشعر بتعمدهم الاصطدام به، لمساتهم البذيئة، بصعوبة وبعد جهد مضنٍ يخرج من الدائرة التي صنعوها ليأخذ كلٌّ منهم نصيبه.
شعر بالنظرات المفعمة بالرغبة لعجزه التي يختلسها شركاؤه في الغرفة، نام على ظهره بملابسه كاملة، وأحكم ربط حزامه حول وسطه، استيقظ على تكبيلهم إياه، تناوبوه، أصبح يتجرد من ملابسه عندما يشعر بحركاتهم التي تنبئ باستعدادهم لمضاجعته.. في الليلة السابقة لعودته للضيعة في إجازة، تناوبوه أكثر من مرة.
للمرة الأولى يلاحظ قهر والدته لأبيه وانشغالها الشديد بالمال، نوم أبيه في غرفة قصية، لم يرهما يومًا مجتمعين، كان يلعب بألعابه المتناثرة هنا وهناك، لاحت منه التفاتة ناحية المطبخ، رأى والده يقترب ببطء من عجُز الخادمة التي تقوم بغسل الآنية حتى التصق بها، فانتفضت وواجهته معنفة، ودفعت يدها لتصفعه، فأسرع بالهرب.
في اليوم المحدد لرجوعه للمدرسة صعد إلى أعلى مكان في القصر وهدد بإلقاء نفسه لو حاولوا إعادته إلى هناك قسرًا، فهو لن يعود مهما كلفه الأمر، رضخت والدته لرغبته تحت وطأة تهديده، نزل من أعلى يكاد الفرح يمزق جنباته، وظل يلعب مع والده في غرفته القصية، جرده والده من ملابسه ببطء في خوف وارتباك وتردد، الدهشة والوجوم كبلاه، لم يستطع الحركة، اعتدى عليه مرات ومرات، لم يدري ماذا يقول؟، كيف يخبر والدته بالأمر؟، اعتاد على زيارات والده اليومية، يغلق (راغب) الباب خلفه ويبتسم الابتسامة اللزجة التي يحفظها عن ظهر قلب، وقتها يرى ما يدور بخلده.
بعد انتهاء جنازة (راغب) ذهب إلى قبره ليلًا، وقف أمامه مليًّا، تذكر كل لحظة اعتدى عليه فيها، بصق على القبر ثم بال عليه، شعر بالارتياح، بالتجرد، لن يمسه أحد بعد اليوم، لم يشعر أبدًا بالرغبة، يخاف الاقتراب منها، ولا يدري كنهها، ضايقه أحد العاملين بالضيعة فصفعه على مؤخرة عنقه، شعر بعضوه يتحرك، يحاول جاهدًا الانتصاب، سنوات القمع الطوال أجهضت العملية قبل بدئها، الخوف الممتزج بالفرح اكتنف

صدره، استعذبه، قرر الإتيان بأحدهم وإشباعه ضربًا، كلما ازداد انتصاب عضوه زادت شراسته، فقأ عينه وكسر ذراعه، لم يتركه إلا عندما شعر بالبلل اللزج يغطي نصفه السفلي، هزه (قاهر) وقال مبتسمًا:
- أين ذهبت؟.
أرغم (عزيز) عينيه العسليتين على سكب دمعة مزيفة، وقال:
- إلى محبوبتي.
- تركتْك.
بصوت يقطر ألمًا قال:
- دهستها سيارة.
سكت هنيهة ، ثم استطرد بصوت متهدج:
- كانت تنتظرني في الجانب الآخر من الطريق، عندما رأتني أسرعت ناحيتي، لم تنتبه للسيارة المسرعة، أنا السبب في موتها.

(6)

اجتاز الملاحظ بوابة القصر المنيف في عجل، سار على الطريق المعبد بالمربعات الإسمنتية التي تتخللها الحشائش والأزهار الصغيرة، سأل الخادم الذي يقوم بريّ حوض أزهار البنفسج عن مكان السيد.

- يتناول إفطاره عند البركة.

سار قليلًا ، ثم انعطف يمينًا، وسار قرابة المائتي متر، وانعطف يسارًا مرة أخرى، رأى (قاهر) و (علياء) و (سعيد) يتناولون إفطارهم على مائدة مستديرة تبعد عن البركة قرابة النصف متر، ألقت (علياء) قطع خبز للإوز السابح في البركة التي يتجدد ماؤها تلقائيًّا لأنها متصلة بالبحر عبر قنوات عديدة تسير تحت الأرض يعمل نصفها على طرد الماء والنصف الآخر على جلبها، أصاب (قاهر) قطعة الحلوى بشوكته فانفلقت إلى شطرين، تناول أحدهما ودسه في فمه وأعقبه برشفة من فنجان الشاي، اقترب ببطء، تناهى إلى مسامعه بقايا حديثهم، قالت السيدة متوعده وهي تشير بيدها محذرة:

- إياك والأحرار، هذا مالي ومال ابني، أمامك نساء الضيعة انهل منهن كما تشاء.

ضحك السيد ضحكة بلهاء وقال:

- لا تقلقي يا عزيزتي فالنساء هنا تكفينني.

شرد (قاهر)، كان الجو المحيط بثلاثتهم معبقًا برائحة عشقها لـ (سعيد)، نظراتها، ابتسامتها، كل حركاتها تشي بذلك، حقد عليه كثيرًا، لم تهتم إحداهن به قط، أبدت اهتمامًا به، لم يصدق، كذب حدسه، عشقها على الفور، أتت إلى منزله بحجة المذاكرة، رائحة الأنثى المتأهبة، الممر الكائن بين ثدييها، نظراتها وابتسامتها المشجعتين المليئين بالميوعة والرغبة والبذاءة أفقداه أعصابه، احتضنها بقوة وقبلها، قالت بميوعة:

- لا.. لا.

حاولت التملص بطريقة ألهبت مشاعره أكثر وأكثر، التصق بها وغابا عن العالم المحيط بهم مليًّا. استردت وعيها، حدَّقت مليًّا في دمائها التي تفرش أرض الغرفة، وأجهشت في بكاء حار، احتضنها واعتذر،

ابتسم، لم يستطع السيطرة على نفسه أمام جمالها الأخاذ، لن يتخلى عنها قط، صارحته بحبها، وأخبرته أنه لن يراها ثانية، هو لا يستحق واحدة مثلها، يستحق واحدة لم تضعف أمامه، احتضنها بقوة وقال بحسم:
- لن أدعك تفلتين من بين يدي بعدما وجدتك أخيرًا.
عندما وضعت سمت ولدها (سعيد) تيمنًا باسمه؛ لأنه من عرفها به، لولاه ما تزوجا قط، كلما ازداد عمر ولده يومًا ازداد شبهًا بـ(سعيد)، الأنف المنتصب، الوجه المكتنز، اللثغة المحببة للأذن.
كلما ذهب لبلاد ما وراء الجبل تجمع ثلاثتهم في منزله الذي يملكه هناك، يعطيهم ظهره ليعد لهم كؤوس الخمر، يشعر بابتسامتهما الساخرة، نظراتهما المليئة بالرغبة، قبلاتهما المرسلة في الهواء، يلتفت سريعًا، يلمح بقايا الابتسامات التي تحاول أن تتوارى سريعًا، يضبط القبلات التي تسبح في الهواء..آه، كم يتمنى لو يكذب ما قالته أمه، كل الدلائل تشير لصدقها، من المؤكد أنها ضاجعت (سعيد) الكثير من المرات... منذ أن تزوجا ولم تتكلم إلا عن المال، مالها ومال ابنها، يتمنى لو يشعر بحبها له لا للمال، إنها لا تحتمله من أجل المال، حتى تأتيه المنية، أحيانًا يخشى الطعام، يهيأ إليه أنه مليء بالسم، يراه فاتحًا فمه، يتوق للجري في دمائه. اقترب الملاحظ ببطء وقال بحذر:
- سيدي...
عودة (قاهر) من خيالاته استغرقت لحظات, بدا الشرود علي وجهه جليا, تصفحت (علياء) وجهه بنظرة جانبية سريعة, وأشاحت بوجهها بعيدا, هي تعلم جيدا ما يدور بخلده, تسمعه كثيرا يتحدث اثناء نومه, لا تكترث لانتشاله من الجحيم الذي يعيش فيه , بل تستمتع برؤيته يتقلب علي الفراش كالمحموم, تستمتع بعدم قدرته علي الاقتراب منها لفترات طويلة, انفاسه الكريهة الرائحة ولعابه اللزج الذي يغطي وجهها يصيباها بالغثيان و لا تستطيع الشكوي أو رفع راية الاشمئزاز تحشي فقد الحياة الكريمة التي تعيشها الآن تفزعها خيالاتها في العودة لحياتها السابقة, تستقيظ بفزع كلما راودها حلم عودتها للحياة السابقة , شكه في سلوكها لن يضرها هو

مجرد شك لم يصل لليقين قط يعذبه ولا يضرها... نظر (قاهر) للملاحظ نظرة خاوية باردة وقال باقتضاب:
- ماذا تريد؟.
- وصلت دفعة العبيد الجديدة.
رشف (قاهر) رشفة من فنجان الشاي وأعاده إلى مكانه، وقال بلامبالاة.
- أمعك (نافع)؟.
احتقن وجه الملاحظ وتمكن بعد جهد مرير أن يخرج صوته بنبراته المعتادة:
- كلا.
أشار له بالانصراف وقال بحسم:
- استدعه وانتظرني بالمكتب.
انتظرا مليًّا في المكتب، واجهه بمعرفة نواياه في الاستيلاء على منصبه، أنكر وقال ببرود:
- لست مسئولًا عن عدم ثقتك بنفسك.
بغيظ ابتلع الملاحظ كلماته، وفي قرارة نفسه صفعه بموجة من السباب البذيء، تمنى لو يصفعه على مؤخرة عنقه، أو يركله في وجهه القميء، حدجه (نافع) بنظرة متحدية، محليًا وجهه بنصف ابتسامة ساخرة، واثقة، هو يعلم جيدًا ما يدور بخلده، رغبته العارمة في خنقه، إقصائه بأية وسيلة عن طريقه. دلف (قاهر) للغرفة، هبَّا واقفين، ألقيا عليه التحية، أمر الملاحظ أن يعد له كأسًا من الخمر، جلس خلف مكتبه وسمح لـ(نافع)بالجلوس، رشف من الكأس بتلذذ وقال:
- لماذا لم تباشر عملك؟.
كاد الملاحظ أن يفقد وعيه من الفرح، ارتبك (نافع)، استطرد (قاهر) بغضب:
- ألم أعينك نائبًا للملاحظ؟.
أشار(نافع) للملاحظ وقال بغضب:
- هو يبعدني عن العمل، يخشى وجودي، يعتقد أنني سأستولي على منصبه.

حاول الملاحظ أن يتفادى التهمة التي أطلقت نحوه، لم يستطع، أصابته، كادت تقضي عليه، لولا تماسكه قليلًا لبلَّل سرواله، أدار (قاهر) دفة الحديث بعيدًا بعدما عجن الملاحظ في مفرمة السباب والتهديد، كيف يجرؤ على عدم إطاعة أوامره، كالمراهق المضبوط يمارس عادته السرية لم يجرؤ الملاحظ على الكلام، تمنى لو ابتلعته الأرض، أمر (نافع) بمساعدة الملاحظ، فالدفعة القادمة كبيرة وتحتاج للكثير حتى تعتاد على العمل هنا، اقترح (نافع) قتل عشرة أو عشرين لأسباب تافهة حتى يعلموا أن هنا عملًا لا شيء آخر، ابتسم (قاهر) وقال بإعجاب:

- ألم أقل لك إنك شخصٌ يعتمد عليه؟.

احتقن وجه الملاحظ ودارت عيناه في محجريهما.

***

ذهب كبار المراقبين لمكان تجمع الدفعة الجديدة، بعدما انتهى الطابور الذي اعتادوا عليه يعلمون جيدًا كل كلمة سيتفوه بها الملاحظ، كل خطوة، عدد مرات مداعبة سوطه لساقه، طريقة انعقاد حاجبيه، محاولته الفاشلة في تقليد السيد، تعليقاتهم التي حفظوها عن ظهر قلب.

- أسيظل هذا الأخرق يردد كلام السيد كالببغاء؟

- لا أدري لماذا يبقي عليه السيد بالرغم من غبائه؟

- يساعده في الترويح عن عضوه.

اندهشوا لوجود المزيد هذه المرة، لم يقف (نافع) في الطابور، وقف بجوار الملاحظ، كادت عيونهم تقفز من محاجرها عندما رأوا نظراته السافرة المتحدية، لم يكن يجرؤ قديمًا على مجرد النظر للملاحظ، طلبه قتل عشرة أو عشرين لأسباب تافهة زاد هوة دهشتهم اتساعًا، قال الملاحظ بحزم:

- يجب ألا يزيدوا عن عشرين، نحن ندفع فيهم مبالغ طائلة.

بعد انصرافه قال (نافع) بسخرية:

- ندفع! لقد نصب نفسه شريكًا للسيد.

***

استيقظ (سعيد) كعادته عند الساعة الواحدة، أمتطى جوداه بعدما تناول الإفطار مع والديه على مضض...سأم من وجودهما، معاملتهما، تلبيتهما كل مطالبه وكأنهما يلقيا كاهله من فوق عاتقهما، لا يضيرهما معاشرته للنساء، يعيث في الضيعة فسادًا، يتوق لرادع، لا يراهما إلا عند تناول الإفطار، يستمع كل يوم لنفس الكلمات التي تفيض من فم والدته عن كون المال مالها، وعدم السماح لأبيه بمعاشرة نساء من خارج الضيعة، أحيانًا يشعر بكراهية والده له، يتحاشى النظر إلى عينه، مناداته، يتنحى جانبًا عندما يشم الرائحة التي تفوح من والده ممتزجة بالكراهية والحزن والذعر، اندهش عندما ميز رائحة الذعر لأول مرة، لم يكن يعرف كنهها، كان تحيره تزيده همًّا فوق هم، حاول أن يعرف السبب، لم يحتمل النظرات المليئة بالتهم، لم يعرف سببها، ما يعرفه جيدًا أنها موجهة إليه، لا أحد يشعر بوجوده، اهتمامهما بالمال هو السبب، لولا اعتياده على النعيم لحرق الضيعة بمن فيها، سار بتمهل يتفحص أعجاز النساء اللاتي انقصمت ظهورهن من كثرة الانحناء، انتصبت إحداهن لتفرغ حجرها المليء بالحشائش، غشي بصرَه نور وكأنه البدر، وقف مشدوهًا يتفحص ملامحها، بالرغم من الحزن العميق البادي على وجهها لم ير في جمالها امرأة قط، أشار للملاحظ الذي هرول ملبيًا النداء، قال رافعًا أحد حاجبيه في إعجاب:

- جميلة هذه الفتاة.

نظر ناحيتها وقال مبتسمًا:

- والدك يعلم هذا أيضًا.

ثم غمز بعينه واستطرد قائلًا:

- أتريدها؟.

ابتسم (سعيد) بلامبالاة وقال:

- والدي دائمًا سبَّاق.

ثم لعق شفته العليا واستطرد قائلًا:

- سآتي إليك ليلًا.

ضحك الملاحظ ضحكة مجلجلة وقال:

- لا تقلق لن تنسى الليلة أبدًا.
عاد (سعيد) إلى القصر، وظل بين الحين والآخر ينظر ناحيتها، يرسم في عقله صورة للحلبة التي سيشيدها ليلًا، لن يتركها إلا منهكة، بعدما أنهوا عملهم ذهبوا لتناول وجبة الغداء المكونة من طبق يشبه من بعيد الأرز الممتزج بالرمل والحصى، وآخر ممتلئ بشيء يشبه الماء تسبح فيه قطع كبيرة صفراء يقولون إنها بطاطس، قلما يأكلونها مطهوة، دائمًا يأكلونها نيئة، طعمها لا يمت بصلة للبطاطس.
تراصت طوابير من النساء والرجال والأطفال عند المخزن بانتظار نصيبهم، من يحصل عليه يجلس في أي مكان يجده، ويلوك دون شهية قطعة من ذلك الكائن الأسود شبه الدائري المليء بالسوس المحمص الذي يطلقون عليه اسم خبز، ويتبعه في سرعة بكميات من الأرز والبطاطس في محاولة يائسة لكي لا يشعر بطعم الطعام الرديء.. بعد انتهاء الاستراحة عادوا للعمل مرة أخرى، انتشر بعضهم في حقول القطن، وقام آخرون بري الأرض، وآخرون حرثوها، جرى العمل على قدم وساق حتى هبوط الليل، تناولوا وجبتهم المعتادة، عاد القدامى إلى منازلهم يجرون أقدامهم جرًّا، وارتمى الجدد تحت السماء غير مبالين بالقيظ المنبعث من الأرض وناموا نومًا عميقًا.

***

كادت الحبال المهترئة اللاصقة للجريد تتفسخ تحت وطأة يد الملاحظ الناعمة المكتنزة بفعل الشحوم واللحوم والابتعاد عما يعكر صفوها، فتح (سليم) الباب متوجسًا، اصطدمت عينه الناعسة المقاومة للنوم بـ(سعيد) يحيط به الملاحظ ورهط من صغار المراقبين، ما يدور بخلدهم أرغم خلايا عقله المرهقة على الاستيقاظ، يعلم جيدًا مطلبهم، ابتسامتهم تشي بذلك، بصوت متهدج قال (سليم):
- ماذا هناك يا سيدي؟ أنا لم أفعل شيئًا.
اتسعت ابتسامة الملاحظ ثم غمز بعينه وأمسك بتلابيبه وشده خارج المنزل، تكالب عليه المراقبون، كبلوه، بخطوات حثيثة دخل(سعيد) المنزل، وقال بسرعة ولهفة مزدردًا لعابه:

- أريد منزلك لساعة واحدة فقط، لا تقلق لن أتأخر.
انطلقت الصرخات المدوية تشق السكون في فزع تبحث يائسة عن أذن تسمعها.

***

انتفض عند سماعه الصرخات الملتاعة، لم يفقد إحساسه بالمسئولية تجاه الآخرين لكونه ابن زعيم القرية، كان على عاتقه مساعدة الآخرين، لم يتبرم يومًا أو يتوانى عن تقديم يد العون لأحد، أجبر جسده المرهق على الجلوس، أيقظ ثلاثة ممن يرقدون حوله، أخبرهم بأمر الصرخة، أجابوه بعد أن عاودوا النوم بكلمات فك طلاسمها بصعوبة علم منها أنهم لن يذهبوا، تجرع استنكاره وضيقه واندفع لنجدة صاحب الصرخة، تسمر في مكانه يائسًا لفشله في تحديد مكانها، شعر بيد توضع على كتفه، انتفض، والتفت سريعًا.
- لا تذهب، (سعيد) يقوم بالترويح عن نفسه، لو رأوك في المنطقة المحيطة لن يرحموك.
تفحص وجهه المستدير الناصع، قطرات العطر التي تسيل على جبينه مخترقة شعره الأبيض الناعم المصفف بعناية بالغة، ذقنه البيضاء المنمقة التي تفوح منها رائحة زكية، ملابسه البيضاء النقية، قال(عادل) باشمئزاز:
- هيئتك توحي بأنك لست ممن يعملون بالضيعة، لا تشعر بما يحدث لنا.
ابتسم الرجل وربت على كتفه في حنان، وقال بهدوء:
- أنا من أهل الضيعة الأصليين، أدعى(عباس)، أنت من الدفعة الجديدة، لا تعلمون شيئًا، عد إلى نومك، فغدًا يومًا آخر من العمل الشاق.
طأطأ (عادل) رأسه وقال شاردًا:
- ولكني لا أستطيع العودة قبل نجدة صاحب الصوت.
لم يجد إجابة، تلفت حوله، لم يجد الرجل، انسابت دموعه في ضعف وحسرة وصرخ يائسًا:
- أين أنت؟.
عاد مكبلًا بالخيبة تلازمه رائحة العطر الزكية.

***

أكمل(سعيد) ارتداء ملابسه بالخارج، انتفض عندما فاجأه صوت الصفعة القوية يتبعه صوت أجش يقول:

- إنه السيد.

انتبه لـ(سليم) مطأطئ الرأس يهتز جسده من شده بكائه الصامت، عقد (سعيد) حاجبيه في غضب، لم يتوقع أبدًا هذا الاستقبال، تتوق صديقاته في بلاد ما وراء الجبل لملاقاته، لكز (سليم) بسوطه وقال بصرامة.

- لقد نلت شرفًا عظيمًا أيها العبد.

ثم أمسك بتلابيبه وشده بقوة، شم (سليم) رائحة (صبرة) تفوح من خلاياه، كاد يفقد وعيه، استطرد (سعيد) قائلًا:

- لولا أن زوجتك أعجبتني لقتلك على الفور، ولتعلم أنني سأزورك عدة مرات، إن رأيتك عابسًا مرة أخرى سأدفنك حيًّا.

تكالب عليه المراقبون، طحنوه، انصرف الجميع مقهقهين يتسابقون في إلقاء النكات من أجل إرضاء (سعيد)، جمع القليل من اللعاب، رفض فمه تنفيذ الأمر بالبصق، حاول عدة مرات، فشل.

"هل ستدعه يأتي إلى هنا مرة أخرى؟، يجب أن تفعل شيئًا، يجب"

انهار.....

لملم كيانه بصعوبة، لم يستطع رأب الصدوع التي انتشرت في كل الأرجاء، دخل المنزل يجر أقدامه، بحث عن (صبرة) فوجدها منزوية في أحد الأركان تدفن وجهها بين ركبتيها، أحست بخطواته فرفعت وجهها ببطء.

- أكان من المحتم عليَّ الزواج بامرأة قبيحة؟

أجهزت كلماته على الجزء المتبقي منها، تدفقت دموعها في غزارة وقالت بصوت مختنق:

- طلقني، أو اقتلني.

ثم مدت يدها وقالت متوسلة:

- أرجوك اقتلني.

أشاح (سليم) بوجهه بعيدًا وقال بصوت مختنق:

- وما ذنبك أنت؟
ثم صرخ قائلًا:
- أخبريني ما ذنبك أنت؟

(7)

اختير (عادل) ضمن مجموعة (نافع الشرس) المكونة من مائة عبد موكول إليهم عزق حوض ثلاثمائة فدان من الأحواض الشمالية، تكدسوا داخل العربات المهترئة، حاولت النساء أن ينأين بأنفسهن عن أنفاس الرجال، أن يضعن الأطفال بينهن وبينهم كحاجز... قام بعضهم بتثبيت مقعد المراقبة على قاعدته الدائرية التي قطرها حوالي النصف متر يتوسطها عمود خشبي يوجد في نهايته مقعد يتدلى منه سلالم نحو الأرض.

بمجرد أن وطأت قدمه أرض الحوض، وفي محاولة للابتعاد عما يجرح كرامته، انخرط (عادل) في العمل طوال أربع ساعات متواصلة وكأنه آلة أصاب جهاز تحكمها عطب ما، طاله الإرهاق فاستند على فأسه، عاث سوط (مساعد) في ظهره فسادا وقال بصرامة:

- عد إلى عملك.

شعر بتدفق الدماء الساخنة من جرح كرامته الغائر، حدج (مساعد) بنظرات غاضبة أثارت ثورته وجنونه فعالجه بجلده أخرى وقال بغضب:

- كيف تجرؤ أيها العبد؟.

حاول (عادل) المحافظة على البقية الباقية من كرامته، أن يتحاشى الاحتكاك به، لم يعره انتباهًا وعاد للعمل، اشتد غضب (مساعد) أكثر وأكثر، لم يجرؤ أحد على فعل فعلته، هوى على ظهره بالسوط مرات ومرات.

لم يشعر (عادل) بالألم وكأنه لم يكن هناك...سبح في بحر ذكرياته لعله يجد نجدة علي شاطئه, استيقظ مبكرًا كعادته، وبعد الاغتسال والانتهاء من إفطاره الدسم فتح باب الحظيرة لتنعم أغنامهم بقسط من الحرية والطعام، ابتسم في قرارة نفسه عندما رأى الدهشة في عيون الرجال والنساء الذين ألقوا عليه التحية أثناء ذهابه للمرعى، قبل المرعى بخطوات قابل صديقه (نابغ) قصير القامة، النحيل، ذا الشعر الكستنائي الزاحف قليلًا للخلف، والأنف المدبب، والعين ذات النظرة الباردة الحادة الثاقبة، بالرغم مما يعتمل في صدر (نابغ) من الآم ابتسم واحتضنه وقال بسخرية:

- ألم يدعك والدك يوم زفافك تستريح من العمل؟
أخبره أنه من صمم على العمل، هو يرى المسالة أبسط من هذا بكثير، ثم وضع يده على كتفه وقال بامتنان:
- لولاك يا (نابغ) لما صارحت (سناء) بحبي، أنت من شجعني على ذلك، لولاك لما تزوجنا، ألا تبغي الزواج؟
ابتلع (نابغ) ابتسامته وشرد... تعافه النساء، وكثيرًا ما يتهامسن ويضحكن عند مروره، عندما سمع قول إحداهن.
- أيملك شيئًا لمن سيتزوجها؟
كاد يريهن ما يملكه، تمالك أعصابه بصعوبة، الصيد في الغابة ملاذه الوحيد، يكون وحيدًا.....رأي (عادل) علي وجه (نابغ) ما يدور بعقله, شعر بمسئوليته عما يعتمل في صدر (نابغ) حاول انتشاله بسرعة , وقال.
- فيم تفكر؟
أجاب (نابغ) بسرعة:
- الصيد.
- الصيد.. الصيد.. ألا يوجد شيء سوى الصيد؟
أخبره أنه يخشى أنه سيظلم من يتزوجها، الصيد كل حياته وسيأخذه منها، قال (عادل):
- تحمل سلاحك وذاهب إلى الغابة للصيد، أليس كذلك؟، أما زالت والدتك تصر على منعك من الذهاب؟
هز رأسه بالإيجاب، وزفر زفرة حارة وقال بحزن:
- منذ اختفاء (أكرم) وهي تصر على منعي، ولكني أذهب دون علمها، إياك أن تخبرها.
طمأنه ثم طالبه بليلة لا تنسى، أقسم (نابغ) أنها ستعلق في الأذهان إلى الأبد، تابع (نابغ) رحلته، وتابع هو الخروف الصغير السعيد بقرونه التي نبتت له حديثًا، أذاقها للجميع، التفت حوله مجموعة من الخراف الكبيرة أشبعوه نطحًا، لولاه لأصبح في عداد الأموات.
عاد بها بطانًا، استقبلته والدته بالزغاريد، طالبها بطعام أم (أكرم) ، قطعت زغرودتها وكست عينيها سحابة من الحزن العميق وذهبت لتعد له

الطعام كالمعتاد غابت دقائق وعادت بالطعام وهي تغمغم بالدعاء أن يرد (أكرم) سالما لوالدته المسكينة.
حمل الطعام وذهب لمنزل أم (أكرم), ألقى السلام ووضع الطعام، حاول الهرب قبل أن تمطره بوابل من أسئلتها.
- ألم تر (أكرم)؟.
ابيضت عيناها من الحزن منذ رحيله، تخرج صباحًا وتجلس أمام باب المنزل منتظرة عودته حتى تعلن الشمس رحيلها، تدخل مؤكدة عودته في الصباح، جلس لا يريد إيلامها، لا يستطيع الرحيل، يعلم أنها ستسترسل في الحديث، أجاب بالنفي مؤكدًا عودته قريبًا، فأمثاله تهابهم المخاطر، سكت هنيهة ثم قال فرحًا محاولًا تغيير دفة الحديث:
- الليلة عرسي يا أمي، باركيني.
تنهدت وتطلعت للأفق، ثم قالت شاردة:
- عندما يعود سأزوجه بأجمل فتيات القرية.
ربتت على الأرض واستطردت قائلة:
- كان يجلس بجواري ويقص لي ما رآه.. وعدني بفراء ليدثرني به في الشتاء، وهو لا ينقض وعده أبدًا، لن يعود قبل أن يأتي لي بالفراء.

***

المرة الأولى التي يجلس فيها على رأس حلقة الشيوخ بدلًا من أبيه وقلما جلس معهم أصلًا، كان مجرد خادم للجلسة، يضع النمارق ويأتي لهم بالماء والشاي، يجلس بالداخل بانتظار إشارة من والده ليذهب إليهم مسرعًا لتلبية مطالبهم، حتى لو جلس معهم لا يجرؤ على التفوه بكلمة أو برأي، يجلس ويستمع، يستمع فقط، كثيرًا ما يطرأ على عقله رأي، يتحرق لقوله، لا يستطيع، يخشى عقابهم، لن يضع أحد في اعتباره أنه ابن زعيم القرية، والده نفسه سينسى أنه ابنه، يسمعه من أحدهم، يستحسنوه، يكاد يضرب رأسه بحذائه، لو تخلى عن القواعد وقال رأيه ربما حصل على حظوة لديهم.

سرت في جسده قشعريرة باردة، وانتابه شعور مزيجًا من الفرح والفخر والتعجرف، سحبه أصدقاؤه من الحلقة ليشاركهم الرقص، احتضنه (نابغ) بحب وقال هامسًا في أذنه:
- إياك أن تخذلنا الليلة.
ابتسم (عادل) ودق صدره بقبضته ثم قال بثقة:
- لا تخف.
تكالبوا عليه وحملوه بين أيديهم عنوة، ألقوه إلى أحضان السماء مرات ومرات، تفرقوا من تحته وكأنهم كانوا على اتفاق مسبق بذلك، لمحهم يبتعدون، اتسعت عيناه فزعًا، صرخ، حاول التعلق بشيء، سقط على الأرض يتلوى، ألقى الجميع أجسادهم فوقه، ظلوا على هذا الوضع لحظات، انفضوا من فوقه تاركينه ملقى على الأرض فاغرًا فاه وكأنه فارق الحياة.
- يبدو أنك ستخذلنا يا رجل.
ضحكوا، تحرك (عادل) مصدرًا آهات ولعنات، ساعدوه على الوقوف، شيئًا فشيئًا ، استرد عافيته وطاح في الجميع محاولًا إصابة أي منهم بركلة أو لكمة، عاد للجلوس على رأس حلقة الشيوخ، تدفقت التهاني، فهز رأسه بتعجرف.
امتطى الجواد، أمسك والده اللجام وسار أمامه وسط موجة عاتية من الغناء والتهليل متوجهين إلى منزل العروس المكتظ بالنساء، خرجت العروس محاطة بالنساء، يلقي بعضهن الورود على الجمع وسط موجة من الزغاريد والغناء، هبط وساعدها على امتطاء الجواد ثم امتطاءه خلفها ساحبًا إياهما أبوها إلى منزل الزوجية، احتضنها، همس في أذنها، بالرغم من عدم قدرتها على فك طلاسم الكلمات ابتسمت، هبط وساعدها على الهبوط، يتوق للالتحام بها للغياب عن الصخب والضجيج والعالم المليء بالشرور، يصبحان كيانًا واحدًا، يرتوي منها وترتوي منه، دخلا المنزل، همَّ بإغلاق الباب، نظر خلفه وجدهم متسمرين في أماكنهم، قال ضاحكًا:
- شكرًا.. شكرًا.

لم يتحرك الجمع من مكانه قيد أنمله، قال بعصبية:
- كفى، اذهبوا إلى بيوتكم.
أغلق الباب بعصبية وقال ضاحكًا:
- لا أعلم ما الذي ينتظره هؤلاء؟
ابتسمت (سناء) في خجل ولم تجب، استبدلوا ملابسهم بملابس النوم، بشرها بليلة لن تنساها أبدًا، كست حمرة الخجل وجهها وابتسمت في خجل، قتل الابتسامة صوت رصاصات تبعه جلبة وصراخ، دهسهما القلق، آثار عجلاته البادية على وجهيهما تشي بذلك، التصقت به في خوف.
- لعلهم يطلقون النار احتفاء بنا.
ثم ربت على كتفها واستطرد قائلًا:
- لا تقلقي.
تركها متسمرة من الخوف وذهب ليرى ماذا يحدث؟، فتح الباب.

***

انحدرت من عينه دمعة وحيدة حزينة ساخنة.

***

مجموعة من الرجال الملثمين يمتطون الجياد، تطارد عشيرته، عبر الغبار رأى والده يحثهم على القتال والمقاومة، عندما رأى والده ممسكًا صدره وعلامات الألم بادية على وجهه حاول الاندفاع لنجدته، أن يلحق به قبل أن يتهاوى على الأرض، لم ير قامته تهتز، يعشق شموخها وعلوها، يتمنى أن يمتلك مثلها، سقطته كانت أسرع، ارتد عندما رأى رجلًا يشق الطريق لمهاجمته، أغلق الباب، وعاد للخلف بخطوات سريعة متخبطة وقال بيأس:
- ماذا سأفعل؟، لا توجد هنا أسلحة.
صرخت (سناء) بفزع.
- ماذا سيفعلون بنا؟ هل سيقتلوننا؟.

أمرها بدخول الغرفة وإغلاق الباب جيدًا، وألا تخرج أبدًا مهما حدث ومهما سمعت، فهي الآن زوجته وسيدافع عنها حتى آخر نفس، لن يخسر كل عائلته في يوم واحد.
- لا تقاومهم أرجوك، سيقتلونك، وأنا بحاجة إليك.
مرر يده على شعرها برفق وقال بحنان:
- سنكمل حياتنا سويًا.
احتوته بعينيها المبللة، حاولت أن تطبع صورته في ذهنها وكأنها لن تراه ثانية.. تناول منضدة صغيرة، واختبأ بجوار الباب الذي سرعان ما تهاوى تحت وطأة حوافر الجواد، دلف الرجل ببطء، شهر بندقيته، وبمجرد أن أصبح في مرمى (عادل) هوى على ظهره بالمنضدة، اختل توازنه، انقض عليه (عادل)وطرحه أرضًا، حاول عبثًا تجريده من سلاحه.. أقتحم رجلان المنزل، وهوى أحدهم بهراوته على عنق (عادل) ففقد وعيه على الفور.. اقتحموا الغرفة المغلقة، انقضت عليهم (سناء) كاللبؤة الشرسة التي تدافع عن أبنائها، صفعت أحدهم ومزقت وجه آخر بأظافرها الحادة التي سنتها من أجل تمزيق ظهر (عادل) عندما يحتضنها بقوة، قيدوا حركتها، قال ذو الوجه الممزق لاعقًا الدماء من فوق وجهه.
- شرسة.. ولكن جميلة.
تحسس صدرها بنهم، ركلته في ساقه بقوة وقالت محذرة:
- إياك أن تحاول تكرارها أيها القذر.
- أيتها الحقيرة كيف تجرؤين؟.
صفعها عدة مرات، تعالى صراخها.
- ستقتلها يا رجل، كفانا ما خسرناه بالخارج.
هدأت ثورته، بحنق طلب الخروج، أثناء خروجه اصطدام بـ(عادل) ملقى في البهو يتحسس مؤخرة عنقه، ويتأوه محاولًا النهوض، ركله في صدره، أمره بالنهوض، بصقت (سناء) على وجهه وصرخت بغضب.
- أتركه أيها الحقير.
قال بغيظ:
- سأتركه أيتها العاهرة.

كال له عدة ركلات في صدره وبطنه ووجهه، غطت الدماء وجهه، تعالت صرخات (سناء) وآهات (عادل)، أمسك ذو الوجه الممزق بتلابيب (عادل) وأجبره على الوقوف، ثم ألقاه ناحية الحائط فارتطم به بعنف، و سقط على الأرض يتلوى. هدأت الأجواء واستسلمت القرية لمصيرها، قيدوا الرجال والأطفال والنساء صفوفًا، خرجت أم (أكرم) من منزلها تسير ببطء وتتحسس الهواء حولها مخافة السقوط، وتساءلت بفزع عن الجلبة والصراخ والرصاص، تعثرت بإحدى الجثث، تحسستها، اتسعت عيناها ذعرًا عندما لامست يدها الدماء الطازجة، وتراجعت بفزع، قال أحد المغيرين بلا مبالاة:

- عجوز وعمياء، من ذا الذي سيقوم بشرائها؟

ثم أطلق النار عليها، رأت (أكرم) على أعتاب السماء ممسكًا بالفراء الذي وعدها به، يلوح لها ويدعوها للذهاب إليه، ابتسمت، مدَّت يدها، واتسعت ابتسامتها أكثر وأكثر.. تحرك الركب باتجاه البحر وبمجرد ابتعادهم قليلًا أضرموا النار في القرية، ظل (عادل) ينظر خلفه بين الحين والآخر، أحيانًا يري الجوارح تنهش جسد أبيه وأمه، وأحيانًا أخرى يرى النار تتجشأ بتلذذ بعد وجبتها الدسمة لأبيه وأمه، يرى ما يمكن أن يحدث له ولزوجته، بعد جهد مرير تمكن من حجز دموعه داخل مقلتيه ومن الاحتفاظ بوعيه.. ساروا حتى الصباح بدون توقف أعياهم المشي والجوع والعطش والسهر، أحيانًا يسقط أحدهم، يفكونه ويكملون السير.

بمجرد رؤيتهم للماء اندفعوا في تخبط، سقط البعض، جرهم الآخرون، شربوا حتى امتلأت بطونهم، شعروا بطعم الماء المالح فأفرغوا ما في بطونهم، اهتزت أكتاف المغيرين من القهقهة، حممت جيادهم وكأنها تشاركهم السخرية.. دفعوهم ناحية الغابة فأكلوا من أوراق الشجر حتى امتلأت بطونهم، جلسوا صفوفًا قرابة الساعتين حتى وصلت سفينة صغيرة لا تتسع لأكثر من مئة شخص، وعددهم يفوق الخمسمائة.. تقاضى المغيرون الثمن، وتكدسوا في السفينة يومًا بأكمله لا يقوون على الحركة فلا يوجد بها متنفس أو موضع لقدم، أعطوهم القليل من الطعام

حتى وصولهم للضيعة، وبالرغم من إرهاقهم الشديد انخرطوا في سلك العمل تحت وطأة السياط.

***

انتهى العمل كالمعتاد قبل نوم الشمس بقليل، ركبوا العربات المهترئة متدافعين بفعل العنف الموجه ضدهم.. تحركت البغال ناحية المخزن لإيداع الآلات والحصول على وجبتهم الأخيرة.. اندس (عادل) و(نابغ) بين صفوف الرجال، مال (عادل) على أذن (نابغ) الواقف أمامه وقال هامسًا:

- أريد أن أراك الليلة عند الصخرة بعد نوم الجميع.

نظر(نابغ) خلفه وقال بقلق:

- لماذا؟.

أجاب (عادل) ببرود:

- لنعيد ما كان بيننا.

- لو رآنا أحدهم، سيحدث ما لا تحمد عقباه.

ربت(عادل) على كتفه، وابتسم قائلًا بثقة:

- لا تقلق، لن يرانا أحد.

***

جال ببصره في المكان، وجده نائمًا على ظهره، فاغرًا فاه، مطوحًا ذراعيه عن جسده، زفر (عادل) بضيق.. أخبرته أنني أريد التحدث معه للضرورة القصوى، أيهزأ بي؟، يتركني منتظرًا إياه وينام.. تحرك بحذر، وضع يده على كتف (نابغ) وهزه برفق، لم يتلق استجابة، أعاد الكرة مرة أخرى، فاستيقظ صارخًا، أسرع (عادل) بوضع يده على فمه ليكبل الأصوات المذعورة المندفعة من حنجرته، نظر حوله في توتر، لم يجد أذنًا التقطت الهمهمات، تنفس الصعداء وأشار له أن يتبعه، قام (نابغ) من نومه متململًا ولحق بـ(عادل)، جلس يحاول جاهدًا أن يبقي عينيه مفتوحتين، قال (عادل) هامسًا:

- إلى متى سنرضى العيش في هذا الذل؟

أنعشت كلمات (عادل) خلايا عقل (نابغ) المنهك، لم يتوقع أبدًا التمرد أو حتى مجرد التفكير فيه، الحراسة المشددة ترغمهم على ذلك، ابتسم ابتسامة باهتة أثارت حنق (عادل) ثم قال بيأس:
- وماذا في أيدينا لنفعله؟.
صرخ (عادل) بغضب.
- يجب أن نهرب من هنا بأي وسيلة.
اتسعت عينا (نابغ) في ذعر ونظر حوله في توتر:
- اهدأ يا رجل.
سكت هنيهة، ثم استطرد قائلًا.
- كيف سنهرب من هنا؟، نحن لا نعلم شيئًا عن المكان.
أجاب (عادل) بضرورة سؤال القدامى ولكن فليتوخ الحذر، ابتسم (نابغ) وهز رأسه بإعجاب وطالب (عادل) بالإفصاح عمن أخبره بابتعاد الحراس والمراقبين عن المكان.
- لأنهم يعلمون جيدًا أننا مرهقون ولا نقوى على السهر؛ ولهذا لن يرهقوا أنفسهم بالمجيء إلى هنا.
لم يلحظ (عادل) صوت اصطكاك أسنان (نابغ) ولا أصوات دقات قلبه المتسارعة، قال(نابغ):
- فقط.
هز (عادل) كتفيه وقال بثقة:
- هذا يكفي.
تثاءب (نابغ) وتمطى، وأدعى انتصار النوم، وجه إليه (عادل) نظرة مفعمة بالشك والتهم.

- **تقديرات:**

اليوم السابع والثلاثون من وصول الدفعة الجديدة

- **فحوصات:**

فقد الجدد نصف أوزانهم تقريبًا، وكست أجسادهم -حتى النساء والأطفال منهم- عضلات كثيفة، وتكونت فوق جلودهم طبقة من القشف كدرعٍ واقٍ لهم.

(8)

بعد أن تكونت فوق جلودهم طبقة من القشف، وقست أجسادهم كالحجارة أو أشد قسوة أمرهم السيد (قاهر) ببناء المنازل في العشرة الأفدنة البور التي ينامون فيها وتناول الوجبة الأولى مع القدامى.

انتهي الجدد من العمل قبل ميعادهم المعتاد بثلاث ساعات ليتمكنوا من بناء المنازل، ارتطمت أحلامهم بصخرة مواد البناء، تهشمت بدويٍّ مكتوم، وكأنهم لم يسمعوا صوت تهشمهًا المتردد في المكان، لم يحاول أحدهم جمع القطع الصغيرة المتناثرة أو مجرد النظر إليها والتحسر عليها، الصدمة ألجمتهم، وكأنهم تحولوا إلى تماثيل صُنعت منذ ألف عام ولم تبرح مكانها لاعتيادها عليه وتحولها لجزء لا يتجزأ منه، قطعت ضحكات (عادل) الهستيرية الصمت المخيم على المكان، ظل يضحك لعشر دقائق كاملة، لم تتحرك شعرة واحدة من الجمع، لم تهتز ملابسهم، لم تتغير انفعالاتهم، وكأنهم انفصلوا عن المكان، استقلوا القطار الذاهب للا وعي، جلسوا هناك يأخذون قسطًا من الراحة بعيدًا عن الصخب والضجيج، عن مواد البناء، عن المنازل، وصل (عادل) وصلة الضحك بوصلة من البكاء الحاد، وقال بصوت متهدج من شدة البكاء:

- منازل.. أي منازل تلك؟

لم يعره أحد انتباهًا، لا يدري شيئًا عن ذهابهم، لم ير القطار، لو رآه لأسرع واستقله قبلهم ، يتوق للجلوس وحيدًا بعيدًا عن الوجوه التي تزوره ليلًا، تؤرق نومه، اشتد غضبه، يتمنى لو آزره أحدهم، أرهقه الحمل الذي يحمله بمفرده، يحلم بمساعدة أحدهم، رفع القليل عنه، لماذا يفكر في الجميع، ولا يستطيع التوقف عن التفكير فيهم، محاولة حل جميع المشاكل التي تصادفهم؟، لماذا لا يفكر الجميع في الجميع مثله؟، شعر بالضيق يمسك بتلابيبه، يخنقه، لم يستطع التغلب عليه، المقاومة، صرخ بغضب:

- أجيبوني...

تفحص العيون الثابتة المحدقة في الفراغ، أيقن انفصالهم عنه، رأى القطع الصغيرة لأحلامهم المتناثرة هنا وهناك، كثيرون استسلموا

لمصيرهم، يتوقون للانضواء تحت سقف منزل، انكسر، وقع على الأرض، استقلوا قطار العودة بسرعة، لن يأتي قطار آخر، من يتخلف سيبقى هناك طوال حياته، انتبه (نابغ) لـ (عادل) جالسًا على الأرض يندب حظه، جلس بجواره وتبعه الآخرون، عض(عادل) شفته السفلى بمرارة، كاد يدميها، حاصر العبرة الآبقة التي تتوق للانفلات، قال بيأس:

- كيف بنى القدامى منازلهم؟

تعلقت الأبصار والأنفس ببريق عينيه، هب من مكانه بسرعة مكررًا كلمة واحدة في آلية: "القدامى"، طلب من (نابغ) مرافقته، قبل أن يتحرك وقع بصره على مجموعة من القدامى حاملين آلاتهم ويسيرون باتجاههم، خرج لمقابلتهم على الطريق فاتحًا ذراعيه مرحبًا، تلاقت الأيادي، تشابكت، ابتسموا، تسأل (سليم) عن سبب عدم البدء في العمل، انقلبت سحنة (عادل) وقال بيأس:

- لم يعطونا مواد بناء.

ضحك (سليم)، انتبه لنظرات (عادل) و (نابغ) المستنكرة، ابتلع الخجل الضحكة دفعة واحدة.

- كنت واثقًا من هذا، لهذا اقترحت أن نأتي لمساعدتكم.

سكت هنيهة، ابتسم بسخرية مطعمة بمرارة ، ثم استطرد قائلًا:

- أتنتظرون مواد بناء من هؤلاء؟، نحن من نصنع مواد البناء من الطمي والطين وسعف النخيل والتبن.

دبت روح العمل في أجسادهم الواهنة المتلهفة للنوم بعيدًا عن الأرض المرسلة لصهد جائع يأكل ظهورهم الغافية من الإرهاق.. أسند لمجموعة جلب الطمي من النهر ، ولأخرى جلب سعف النخيل وتفتيته، والثالثة باستعطاف الملاحظ لإقناع السيد بإعطائهم كميات من التبن الموجود بالمخزن ، وآخرون بتخمير الطمي مع سعف النخيل حالمًا تأتي الثالثة بالتبن ليصبوه في قوالب خشبية وتركها لتجف.

***

ابتسامته الهادئة الواثقة، نبرات صوته المشبعة بالثقة والغرور والاستفزاز أثار حنقه، تمنى لو يصفعه، يركله على مؤخرته، إحساسه بصحة كلامه أجبره على التراجع، السماع حتى النهاية، عندما وصل لجملة "سيدي أنتم المستفيدون"، ارتفع صوته قائلًا بغيظ وعصبية:
- كيف أيها الذكي؟
- عندما نبني منازلنا بطريقة سليمة لن تتعرض للهدم سريعًا، ولن تضطروا لترك مساحة من الوقت، العمل أحوج إليها لنبني المنازل مرة أخرى.
رأى (نابغ) استجابة الملاحظ، اقتناعه بصحة كلماته، رغبته العارمة في الموافقة، تراجعه قبل التفوه بكلمة "معك حق"، علامات الانزعاج البادية على وجهه، انفجر عرق الملاحظ خجلًا محملًا برائحة الحسرة لانهزامه أمام قوة منطقه، قرر إعطائهم الكميات المطلوبة دون الرجوع لـ(قاهر)، ثم يوضح له الأمر لعله ينال إعجابه لاهتمامه بالحفاظ على سير العمل بانتظام، لو رأت بصيرته تعنيف (قاهر)، أصبح يتصرف في المال كأنه مال أبيه أو أمه، يتصرف من تلقاء نفسه في كل شيء، لقد تجاوز الحدود وليحذر، لو رأت بصيرته ما سيحدث لأشبع (نابغ) ضربًا، لم يستطع نجدة التبن، خلطوه بالطمي، كادت نظراته الغاضبة تحرق (نابغ).

***

الجزء الغائر على شاطئ البحر تخفيه الصخور عن العيون، يذهب إليه خلسة، استغل انشغاله في البناء مع الجدد وفك طوق الحصار عن عنقه قليلًا وتسلل إلى هناك، لم يكن يعلم أن أحدهم يتبعه، يقف بعيدًا منتظرًا اللحظة المناسبة للانقضاض، لاختراق الأسوار والسباحة والتقاط ما يحلو له.
أمسك حجرًا وألقى به في الماء، تابع في شرود، الدوائر تتسع وتختفي في الأفق، رأى (صبرة) دائرة تبتعد، لوح لها، وعدها باللحاق بها، سيستقل الدائرة المقبلة، أتاه صوت أحدهم يطالبه بالسماح له بالجلوس، فاتته، حاول التشبث، فشل، حاول أن يعدو خلفها، ابتعدت، أطلق من

أعماقه زفرة حارة وتأمل وجه (نابغ) برهة ثم سمح له بالجلوس، لطمه ضيق (سليم)، لم يتوقع أبدًا هذا الضيق عند رؤيته، أوشك على الانسحاب، لملم كيانه، أجبر قدميه على التقدم، قال بخجل محاولًا جمع كرامته المبعثرة:

- ولكني أخشى قطع خلوتك.

- قطع خلوتي من أذكى رجل في الضيعة هو أفضل شيء حدث لي اليوم.

ابتسم بثقة وجلس دون أن يرد، سأل عن علامات الضيق، أشاح (سليم) بوجهه بعيدًا لكي لا يرى النظرة المرتسمة في عين (نابغ)، يعلم أن الكثير يعلمون، يتوق للتحدث، سكب بعض الماء على النار المستعرة داخله، أخبره عن الصرخات التائهة البائسة التي بحثت عن أذن تسمعها دون جدوى، عن الندبة المتوجة الخد الأيسر، الخجل والدهشة أصابا (نابغ) ببكم مؤقت، لا يدري ماذا يقول، قال بتردد محاولًا إدارة دفة الحديث بعيدًا:

- ما رأيك في سير العمل؟.

انتبه (سليم) لمحاولات التملص، لم يقاومها، لا يريد لسانًا، يريد أذنًا يشعر أن صاحبها يهتم لأمره، أجاب بأنه يسير بشكل غير متوقع، حماسهم مذهل، طالبه بأن يقص له كيف أقنع الملاحظ بإعطائهم كميات التبن المطلوبة؟، سحب نَفَسًا عميقًا، بابتسامة ساخرة تكلم عن سذاجة الملاحظ، سهولة خداعه، ارتفع حاجبا(سليم) بإعجاب:

- لم أبالغ عندما قلت إنك أذكى رجل في الضيعة.

قرر (نابغ) أنها اللحظة المناسبة لتسلق الأسوار بخفة والسباحة لالتقاط ما يحلو له، قال محدقًا في الأفق المكان هنا حصين للغاية.. كيف حصنوه؟، الهروب من هنا مستحيل.. هل صادفك أحد حاول الهرب؟.

أهداه (سليم) نظرة جانبية، نصف ابتسامة واثقة، لم ينتبه لهما (نابغ)، واراهما سريعًا قبلما ينتبه لهما، عض شفته السفلى بمرارة وقال:

- لا فكاك.

سكت هنيهة ، ثم استطرد قائلًا:

- أمامك البحر، لا شيء في الأفق، لن تتجاوز العشرة أمتار ويتم اصطيادك، والأسوار خلفها ضيعة أحد أقارب السيد ولا تختلف عن هنا كثيرًا، والصحراء، لو تجاوزت الحرس سيطلقون خلفك الكلاب، وإن لم تمت من العطش أو نهش الكلاب سيأتون بك لتعمل نهارًا في الأغلال لتزيدك إرهاقًا فوق إرهاقك، لا تتحدث إلى أحد، وفي الليل تحبس في الزنازين الموجودة بالمخزن، أما الجبل فقد هرب عبره أحدهم وزوجته، ولا ندري أهرب أم أكلته الكلاب أم مات عطشًا؟ لم نسمع عنه شيئًا منذ قيامه بالهرب.

***

طالبه بنسيان الهرب، بعصبية وغضب اتهمه بالجبن والخوف واعتياد الذل، لم يفقد (نابغ) أعصابه أمام جسامة التهم بالرغم من كون ناقوس كرامته أصابه الإرهاق من كثرة الدق، أطرق، أطلق عقله من عقاله، أمره بالتفكير بسرعة البرق، قال شاردًا:

- لا يوجد سوى حل واحد.

بلهفة طالبه (عادل) بنجدته به، ارتدت كتائب الأمل مدحورة عندما قال (نابغ) "هروب جماعي"، بيأس واستنكار قال (عادل):

- ماذا؟ أتريد الهرب إلى الخارج أم إلى القبر؟ هل تعي جيدًا ماذا سيحدث عندما تنتشر فكرة هروبنا وتصل؟ وستصل حتمًا؛ فعيونهم في كل مكان؟ ماذا سيحدث عندما يعلمون بتدبيرنا الهرب؟

رأت استخبارات كتائب الأمل ابتسامة (نابغ) الواثقة، تعلقت بشفتيه، أرسلوا خبراء قراءة حركات الشفاه لقراءة حركات شفاه (نابغ)، أخبروهم أنه قال: "سنكون خمسة وبزوجاتكم تسعة لكي نتمكن من القضاء على الحراس القابعين عند الجبل"، بدهشة قال (عادل):

- الجبل.

- سنهرب عبر الجبل.

تراصت كتائب الأمل خلف (نابغ) منتظرة إشارة البدء.

- **المنازل:**

مئة منزل، بنيت على أربعة خطوط، كل خط يضم خمسة وعشرين منزلًا، الخط عبارة عن اثني عشر منزلًا يلتصق في ظهورها اثنا عشر أخرى، وينتهي الخط بمنزل لا يلتصق بظهره أي منازل، تتلاصق جدران المنازل اقتصادًا للنفقات، ينظر أحد أبواب المنازل شرقًا والمنازل الملاصقة لظهورها تنظر غربًا، بين الخط وبين الآخر ممر لا يزيد على المتر و النصف متر.

المنزل مكون من غرفتين مسقوفتين بمجموعة جريد متراصة بدقة تعلوها طبقة دقيقة من الطين، وتركوا الصالة تطل على السماء.. الأبواب عبارة عن مجموعة متراصة بدقة، واستخدمت جريدتان لقفل الباب من الداخل بواسطة قطعة خشب صغيرة ملتصقة بالجدار.

عكفت مجموعة منهم على صناعة شيء يشبه قفص الدجاج بالرغم من رداءة صنعه؛ ليستخدموه كفراش بعدما يضعون فوقه كمية من سعف النخيل التي تعلوها قطع القماش الممزقة.

- **قبل أسبوعين من الانتهاء من بناء المنازل:**

سأله عن عدد الأسر، أجابه بإرهاق بعدما استلقى على الأرض فور انتهائه من طعامه: "مائة وخمسون"، أخبره (سليم) بأنهم سيبنون مائة منزل، فهناك خمسون، وطالبه بالانتقال إلى هناك اليوم.

- أترك عشيرتي تنام في العراء، وأذهب لأنام وأستريح داخل منزل.
- لن تذهب بمفردك، سيذهب معك آخرون.
- ونخلق صدعًا بيننا لا نستطيع رأبه أبدًا.

(9)

تصفح (عادل) وجوههم، بتعتعة قرأ الخوف والتردد.. يجب شطبهم، سيتمكنون من كشفهم والإطاحة برؤوسهم.. بصرامة قال:

- لقد نلنا ما يكفينا، من منا لم يجلد لأسباب تافهة؟، نعمل وكأننا ثيران لا تكل ولا تمل.

القلم تحرك ، استعد للشطب، لامس سنه بداية السطر، صوت الطرقات جعل الرعب يصول ويجول في النفوس، تراجع القلم، اختبأ، التصقوا بالجدار، صوت اصطكاك أسنانهم طغى على أصواتهم المرتجفة التي تقول "ماذا سنفعل؟، لقد كشفوا أمرنا..أمر(نابغ) الجميع بالتزام الصمت والعودة لأماكنهم وتركه يتحدث مع القادمين، فُتح الباب، دلفوا سريعًا للداخل، تجاهل(سليم) السؤال وقال:

- ألم أقل لك إنك ذكيّ؟، الليلة الأولى التي تبيتون فيها في منازلكم ، لن يشك فيكم أحد، مرهقون.

بعصبية ونفاد صبر صرخ (عادل):

- لا أعلم عما تتكلم بالضبط.

اتسعت ابتسامة (سليم) وقال بهدوء:

- أنتم تنوون الهرب.

طلقاته أصابت أهدافها بمنتهى الدقة، الوجوم خيَّم على المكان، العيون دارت في محاجرها، تمنى (نابغ) أن يصرخ فيهم يطالبهم بالثبات، ابتسامة (سليم) التي تتسع أثارت غضب (عادل)، انقض عليه، صفعه، صرخ قائلًا:

- أنسيت ما فعله السيد وابنه بزوجتك؟ أبعد ما فعلوه تعمل جاسوسًا لهم؟

دق الغضب جنبات (نابغ)، صمم على الخروج وطرح (عادل) أرضًا.

"ألم أخبرهم أن يتركوني أتحدث مع القادمين"

قال (نابغ) بحزم:

- اهدأ، لا يعمل معهم، فلو كان لكنا في عداد الأموات.

بنفاد صبر طالبه (عادل) بالإفصاح عما يريد.. بالرغم من تحطم قلب (سليم) فوق صخرة الألم، حافظ على هدوء وجهه، قاتل رغبته في

الصمت، الانزواء في أقصى الركن والنحيب بصوت عال، ابتسم، قال بهدوء لم يتمكن من تنقية كل الألم الملتصق بصوته.
- أريدكم أن تتخلوا عن الهرب.
بحاجبين مقطبين تسأل (نابغ) عن السبب.
- تمرد، وقتل جميع من أساء وا إلينا، الاستيلاء على الضيعة.
باستنكار وسخرية قال (نابغ):
- ولكنها ليست أرضنا لنستولي عليها.
- إنها أرضنا رويناها بدمائنا وعرقنا.. وسنأخذها.
ببرود قال (نابغ):
- خذها أنت أما نحن فسنـ...
قاطعه (عائد) قائلًا، مشيرًا بيده محذرًا.
- الداخل مفقود والخارج ميت.
وضغط على كلمة ميت، همَّ بالاستطراد، فسبقه (سليم) قائلًا بحزن:
- قديمًا عندما تمرد (عباس)، لم أشاركهم، طالتني أيديهم بالأذى، لم يفرقوا بين من اشترك ومن لم يشترك.. لا تحسبن ما حدث لكم أذى، فقريبًا ستعلمون ما هو الأذى.
افترشوا الأرض، بابتسامة صفراء طالبهم (سليم) بالسماع، هو لن يقص عليهم قصته، فهم يعلمونها جيدًا، أطرق (عادل) خجلًا.

● **العبد:**

لم أقتنع أن والدي كان أغنى رجل في بلدته.. استأجر سفنًا استعدادًا لتجارة ضخمة، تعلقت زوجته بأذيال ملابسه، ألحت على الذهاب معه، تتوق لرؤية بلدان جديدة.. لم تحتمل السفن القصف المتواصل، سقطت في براثن قراصنة، استولوا على حصيلتهم من بيع البضاعة.. العمل الشاق وكثرة الانحناء أجبر الطلق على إتيان والدتي بي في نهاية الشهر الثامن، لم يحتمل جسدها الرقيق المكان الملوث.. يقولون إن إحساس والدي بأنه السبب في التفاف طوق العبودية حول عنقي جعله يرفض إطعامي، صرخاتي الجائعة المتواصلة مزقت قلب إحدى جاراته، دقت الباب بعنف، تريد إرضاعي، رفض والدي، حاولت أخذي بالقوة، تحت وطأة

صرخاتي وافق، صمم على تسميتي العبد، لم أكن أعلم أنه والدي، حيرتني نظراته الهاربة، إشاحة وجهه بعيدًا، أيقظاني، أخبراني باحتضار والدي، نظرت حولي، ابتسمت لطرافتهما، فهو يقف بجوار فراشي، أخبراني أنهما ليسا والداي الحقيقيين.. المرة الأولى التي يتعلق فيها بصره بي وكأنه يحاول الاعتذار، ابتسم، هز رأسه محييًا ثم سكنت حركاته، لم أشعر بالحزن، لم يختلجني أية شعور.. في العام الماضي أثناء الاحتفالات بعيد ميلاد (سعيد) اكتظت الضيعة بالزوار، امتطى (سعيد) وأصدقاؤه الجياد وخرجوا للنزهة، أمر الحراس بأن يأتوا له بأي عبد، أمره بالتجرد من ملابسه، رفض، صوب الحرس بنادقهم نحوه، وأجبروه على خلعها، أمروه بالعدو، تركوه يعدو قرابة المائتي متر ثم انطلقوا خلفه، كانوا يتسابقون من منهم سيحصل على رأسه أولًا، أمرت الفتيات المصاحبات لهم الحراس بالإتيان بآخر، جردوه من ملابسه، شهقن، لم يشاهدن مثله قط، أصرت إحداهن على قطعه والاحتفاظ به، لم يبالوا بصرخاته، محاولاته المستميتة لدفعها بعيدًا، تركنه ينزف وذهبن لمشاهدة المراهنة، من منهم سيصيب التفاحة الموضوعة فوق رأس العبد، ترنحاتهم وأيديهم المهتزة بفعل السكر أنتجت ثمانية قتلى، وقهقهات، قهقهات عالية كاد أصحابها يفقدون حياتهم من كثرتها.

- **عائد:**

اعتليت إحدى السفن المغادرة بغية العمل، متمنيًا العودة بالكثير والكثير من الأموال لأضعها أمام الجميع ليقبلوا أقدامي ويتبركون بنخامتي، اعترضتنا سفينة قراصنة، قتلت وحرقت ونهبت واغتصبت بقدر استطاعتها، أسرت الباقيين الملتصقين ببعضهم كأكوام القمامة، عشنا في قبو السفينة عدة أيام بدون طعام وشراب، مات الكثير فألقوا بهم في البحر.. منذ سنوات حاولت الهرب، اصطادتني الكلاب، وبعد أن عاثت فيَّ فسادًا، حملوني إلى الزنازين، كنت صباحًا أخرج للعمل ساحبًا خلفي كرة حديدية ضخمة تزيدني إرهاقًا فوق إرهاق، وفي الليل ألقى في الزنزانة، طوال ستة أشهر لم أتبادل كلمة واحدة مع أحد حتى كدت أفقد عقلي، كنت أعشق التمرد وما زلت، اجتمعت وآخرين وطالبنا بتحسين

الطعام وإلا توقفنا عن العمل، أجبرونا على جمع الدود من القطن، منعوا عنا حصة الطعام، لم يكن مسموحًا لنا بأكل أوراق القطن، في اليوم الثاني كان الجوع يعض بطوننا فأكلنا الد...

- **(عائد) يدير دفة الحديث بعيدًا:**

لإحساسه بجر الكآبة إليهم، تناسى نجاحه في أداء مهمته، استدعاء الرعب والخوف إلى نفوسهم، سألهم عن رؤيتهم السيد يتفقد العمل، هو لم يخرج منذ فترة، عندما يمر بجواره ينظر ناحيته، يجد الخيول تنظر إليه مستغيثة، مسكينة؛ فهي تجر خلفها أطنانًا من اللحوم، يشيح بوجهه بعيدًا، ماذا سيفعل لها؟، هي أفضل منه تلقى رعاية، يقومون بإطعامها وتنظيفها.. السيدة تمتلك كلبة، دقق النظر فوجدهما متطابقتين، التسريحة واحدة، المشية المغرورة، أحيانًا يشعر أن الكلبة تشمئز منهم، طعامها أفضل من طعامهم، لو قدم إليها لن تأكله أبدًا، قلد طريقتها في المشي فانفجر الجميع ضاحكين.. خيَّم الوجوم على المكان لحظات، أزاح (عادل) الخيمة بعنف وقال بحزن:

- زوجتي ما زالت بكرًا.

أطرق (سليم) خجلًا ولم يجب، بابتسامة هادئة عالج (عادل) الخطأ، وأخبرهم عن عدم قدرته على الاختلاء بها، لم تطفُ ابتسامة (سليم) الساخرة فوق وجهه.

***

وجد (صبرة) نائمة، استلقى بجوارها على جانبه الأيمن، تفحص وجهها الملائكي لدقائق ثم أغلق عينيه.

- النجدة يا (سليم)، النجدة.

- لا تؤاخذني لم يكن بيدي شيئ.

فتح عينيه بسرعة، اصطدم بوجهها، نام على ظهره، حدَّق في السقف طويلًا، ثم أغلق عينيه.

- نريد منزلك لساعة واحدة فقط، لا تقلق لن أتأخر.

- لقد نلت شرفًا عظيمًا أيها العبد.

***

لم تلتقط أذن (صقر) سوى كلمة "غدًا"، وارتفعت بعدها الأصوات تعلن الرحيل والتأكيد على اللقاء عند الطعام.. في الصباح اقترب من الملاحظ ببطء وحذر، يعلم جيدًا مغبة الخطأ، شعر به الملاحظ، التفت، كشر عن أنيابه:

- لماذا أنت هنا؟، ماذا تريد؟.

ارتجف، تصارعت ركبتاه في شجار عنيف، رقص له قلب الملاحظ طربًا، لم تفقد صرامتك بعد، تمادى، لطمه بعنف فخرجت الكلمات متدافعة، دهس بعضها الآخر، لم تلتقط أذن الملاحظ أي شيء، عقد حاجبيه ودفعه بقوة، ثم ركله على مؤخرته، بلا إرادية أسرعت يد(صقر) إلى موضع الضربة وقال:

- بالأمس رأيت مجموعة من القدامى يقتحمون منزل أحد الجدد يدعى (عادل)، وأنا أثق تمامًا أنهم يدبرون لتمرد، غابوا كثيرًا بالداخل وبعدها خرجوا فرادى.

اتسعت عين الملاحظ ثم دفعه بقوة فسقط على الأرض، رفع يده الممسكة بالسوط وقال بغضب:

- لماذا لم تتجسس عليهم أيها الغبي؟

رفع يده اتقاء الجلد، وأخبره بصوت أقرب إلى البكاء أنه خاف أن يراه أحد وعندما تأخروا اقترب من المنزل واستطاع أن يسمع اتفاقهم على الاجتماع الليلة، ابتسم الملاحظ، اقتربت يده من الخيط المربوط بنهايته مجده الآخذ في الزوال، سيطيح بـ (نافع) بعيدًا، ركل(صقر) بقوة وقال:

- ستنال مكافأة عظيمة.

- يكفيني رضاك سيدي.

سكت هنيهة، ثم استطرد قائلًا بصوت خفيض:

- أخيرًا نلت منك يا (عادل).

نظرة الملاحظ أربكته، ارتعب لإمكانية سماع الملاحظ لكلماته، بشرود أمره الملاحظ بالحضور امامه في الاستراحة بعد انتهاء العمل وعدم إخبار أحد بما دار بينهما.

(10)

ببطء مرت ساعتان على رقدتهم مختبئين تحت كومه من أوراق الشجر وكأن عقرب الثواني أنهكه الدوران.

" لقد تسرعت يا (صقر)، ولكنك سمعتهم يتفقون على الغد"

قام الملاحظ ينفض ملابسة ليزيل ما علق بها من أوراق وقال بسخط وغضب:

- إننا نائمون هنا منذ ساعتين ولم يظهر أحد.

ثم أمسك بتلابيب (صقر) وجذبة بعنف، واستطرد بغضب:

- أتهزأ بي أيها الحقير؟

ارتعدت أوصال (صقر)، شعوره بقرب نهايته أجبر صوته على حمل نبرات البكاء .

- آتون لا ريب

لكمه الملاحظ بقوة، فارتد (صقر) للخلف وسقط على الأرض، ركله الملاحظ في معدته وقال بصرامة:

- أتستخدمني لتصفية حساباتك؟

فرائص (صقر) المرتعدة طغت على قسمه بالنفي، أعاد الملاحظ ركله وقال بصرامة:

- ألم تقل أخيرًا نلت منك يا (عادل)؟.

اغرورقت عينا (صقر) واكتفى بهز رأسه.

"كثيرًا ما شممت هذه الرائحة وقت المؤامرات, هناك شيء ما يحدث ويجب حصاره قبل طفحه، ليخاف الآخرون سأنكِّل بهذا"

أمرهم بتكبيله، فتح فمه عنوة، بتلذذ وبطء قطع لسانه، يتوق لرؤية الرعب المرتعش على خلجات أعين الآخرين، يثبت للسيد أن قلبه لم يرق وأنه أقسى من(نافع).

اخترقت المسامير راحة (صقر)، استطاعت صرخاته المبتورة المختنقة بعد صراع مرير الانفلات من قبضة الدماء المحشورة بفمه، هزت الصرخات جميع الأجساد، أجبرتهم على الاستيقاظ، لم يستطع أحدهم الخروج لرؤية ما يحدث، سمرتهم الصرخات في أماكنهم، وقتها تمنى

الملاحظ أن يكون قريبًا من القصر ليستيقظ السيد، سأعدو في الصباح لأخبره بما حدث.. قبل انصرافه، أمرهم بتركه مصلوبًا لمدة ثلاثة أيام.

***

ارتد (عادل) للخلف عندما وقع بصره على (صقر) مصلوًبا، حاول الابتعاد سريعًا، صرخاته المبتورة المنهكة استوقفته، اهتزازات جسده العصيبة تحاول تحذيره من شيء ما.. ارتبك.

***

طالبًا (سليم) بالتخلي عن الأمر، حدجهما بنظرة مشمئزة وقال ببرود واستحقار:

- هل قررتما الانسحاب؟.

أشارا للمصلوب، بسخرية أجاب (سليم):

- لهذا يجب أن نسارع بتمردنا.. الخوف جعلكما تتراجعان.

أخبراه بحب (صقر) لـ (سناء)، أعلن الحرب على(عادل)، منذ أن تزوجها يحاول الإيقاع به في أية مشكلة، يخافا أن يكون وشى بهم ولكن الأمر انقلب عليه فصلبوه، شعوره بالخطأ جعله يحذرهم بصرخاته المكتومة.

- **<u>خطة (سليم) بالتنسيق مع (نابغ) للاستيلاء على الصيغة:</u>**

* بدأ التنفيذ في اليوم التالي لاكتمال عدد المجندين: تسعين؛ ثلاثة وثلاثين من الجدد، وسبعة وخمسين من القدامى.
* استغرقت عملية التجنيد ستة وعشرين يومًا.
* بعد تجنيدهم لم يلتق بهم أحد، اعتقدوا أن التمرد تم صرف النظر عنه.
* أثناء تناول الوجبة الثانية وقبل التنفيذ بساعات أمروهم بالحضور لمنزل (سليم).
* قبل ساعة ونصف من التنفيذ تم عرض الخطة على (عادل) والآخرين.
* اكتظ منزل (سليم)، أمرهم بالهدوء والاستماع فقط فلو تفوه كل واحد منهم بكلمة واحدة لانكشف أمرهم.

* أجـل (عـادل) إبـداء اسـتياءه لإقـصائه عـن وضـع الخطـة ومعاملتـه كالآخرين بالرغم من كونه أحد قادة التمرد.

- **<u>الخطة تحت التنفيذ</u>.**

عندما سأل أحدهم عمن ستقوم باستدراج (سعيد) أجاب (سليم) دون أن يرفع رأسه عن الرسم الكروكي للضيعة القابع على الأرض.

"(صبره)"

لم ينبس أحدهم ببنت شفة، لم يتوقع أحد هذا الرد، داعبت الابتسامة جانبي فم (عادل) أوشك على قول.

"(سعيد)لم ينسها بالطبع".

شعوره بإمكانية فشل الخطة بالتصادم أجبره على التراجع في اللحظة الأخيرة.

"أتوق للرد على (سليم) و(نابغ)"

في الميعاد المحدد لنزهة (سعيد) الليلة، أرسلت (صبرة) شعرها لكتفيها، حسرت ثوبها عن فخدها المرمرية، وجلست بعيدًا عن المنازل قرابة النصف متر، وضعت بين رجليها الطشت الصدئ المليء بالثقوب، استطاعت الحصول عليه من المطابخ -الكائنة بالمخزن- بشق الأنفس، وضعت يدها وبدأت في غسل الملابس، انتبهت لحوافر الجياد، نظرت للقادمين، قتلها التهام عيونهم لساقها ونهدها المنتصب، أرغمت شفتيها على إرسال ابتسامة مفعمة بالرغبة لـ (سعيد)، قامت وسارت بميوعة تنظر خلفها بين الحين والآخر.

- لقد علقتَ في ذهنها سيدي.

قهقه، دق صدره بقوة وقال بجذل:

- من تجربني لا تنساني أبدًا.

تبعوها، وقفت على باب المنزل مرسلة نظرة أخيرة وضحكة عالية تردد صداها في المكان، دلفت، اندفعوا خلفها، بمجرد دخلوهم المنزل

حاصرهم العبيد مصوبين لنحورهم جريدًا سُنت رأسه ليكون أشبه بالرمح، جردوهم من سلاحهم، حذروهم من الصراخ والاستنجاد.
اقتاد (سليم) (سعيد) لغرفة جانبية، طرحه أرضًا، أمره بتقبيل قدم (صبرة) ثم قدمه، تدفقت دموع (سعيد) بغزارة، بصوت متهدج حذرهم من العواقب، هم لا يعلمون ما يفعلوه، غرس (سليم) الرمح في ظهر (سعيد)، تأوه، حاول نزعه، ركله (سليم) على مؤخرته وغرس جزءًا آخر من سن الرمح، قبل قدمها ثم قدمه، أمره بالاستلقاء على ظهره، كبلوه، كموه، ببطء وتلذذ نحره، تأمل السكين المخضب بالدماء، وعده بتذوق دماء (قاهر)، تجاوزوا بركة الدماء المتكونة في بهو المنزل، تحت جناح الظلام تسلل خمسون للمخزن، راقبوا الحارسين المستلقيين على ظهريهما، واضعيْن بندقيتيهما بجوارهما، أمرهم (سليم) بانتظار إشارته، سيسدد الجميع رماحهم نحوهما ويطلقوها في آن واحد.
مزقت الرماح جسدي الحارسين، جروهما للداخل، بدلوا ملابسهما وجلس آخران مكانهما مسدلين غطاء رأسيهما على وجهيهما، من النوافذ المتناثرة راقب آخرون الطريق، كدسوا تسعين بندقية والكثير من الذخيرة، أخرجوا الأخشاب والمناشير والشواكيش من مكامنها، تعالى صوت المناشير تبعه صوت طرقات ناتج من الدق فوق المسامير، صنعوا سبعة سلالم، سيجبرون عضلاتهم المنهكة على صناعة ثلاثة عشر أخرى، بلغتهم المراقبة باقتراب أحدهم، توقف الطرق، لمح (سليم) الخوف يزحف فوق جسدَي الجالسيْن عند باب المخزن، طالبهما بالهدوء ومحاولة القبض عليه، لن يعرفهما، ليبقيا مختبئين خلف غطاء رأسيهما، حاول الجميع كتم أنفاسهم، الامتناع عن الحركة، اقترب الحارس بعنجهية، أمرهم بالوقوف، هو أعلى منهم مقامًا عند السيد، ببطء قام أحدهم، اقترب من ساقه، في غفلة منه قبض عليها، سحبها، سقط مصدرًا دويًّا وآهة مكتوميْن، هجم الآخر على فمه، كممه، سحبوه للداخل، بخرقة متسخة كموه، بتلذذ عرضوا عليه المناشير، مرورها برفق فوق جسده، دب الحماس في قلوبهم لمرآتهم الرعب المتراقص

فـوق عينيـه، نـشروه، صـوت صـرخاته المكتومـة وارتعاشـة جـسده أصاباهم بالنشوة.
عادت المسامير تئن من شراسة الدق، في ساعتين صنعوا السلالم الباقية، أرسلوا عشرين ليوصلوا عشرة سلالم وأربعين بندقية وذخيرة للقابعين في المنـزل، وينبهـوهم للمـرة الأخيـرة بالاختبـاء شـمال القـصر، وانتظـار الحراس القادمين من الجبل، يجب أن يتأكدوا أن صوت طلقات الجنوبيين يطغى على رصاصهم، تسلل الجنوبيون لاستراحة المراقبين، وجدوهم نائمين كالقتلى، بهدوء مرروا نصال السكاكين على رقابهم.
انطلقوا ناحية القصر، اختبأوا خلف الأشجار الموجودة قبل القصر بمائة متـر، لا يـستطيعون الاقتـراب خطـوة واحـدة؛ فـالأرض جـرداء وسيصطادهم الحرس بسهولة، انطلقت الرصاصات تحصد الحارس الذي يتمطى فوق سور القصر، ارتد وسقط على الأرض مصدرًا دويًّا هائلاً، أعلن النفير.
- هجوم على جنوب القصر.
صـعق الهـرج والمـرج أرجـاء القـصر، انـدفع جميـع الحـراس لمواجهـة الهجوم، تبادلوا إطلاق النار، بحماسة خرج (العبد) من مكمنه، صرخ.
- تحيا الحرية.
مزقت الرصاصات -التي يئست من إصابة أحدهم- كتفه، ارتد، سقط، لم تتوقف الرصاصات عن ملاحقته، سحبوه بعيدًا عن مرماها، ابتسم، بللت دموعه الثرى الكائن خلف رأسه المهتزة جراء كتم صرخة الألم.
- سأموت قبل خطوات من الحرية، يبدو أنها تعافني، يجب أن تحصلوا على حريتكم لا تخذلوني، اكتبوا على ضريحي: (الحر) (العبد) سابقًا.
سكنت خلايا الجسد المنهكة.

***

دق طبولَ آذانهم صوتُ الطلقات الكثيفة، بادلوا بعضهم نظرة متسائلة، المرة الأولى التي يسمعون فيها صوت الطلقات في الثلث الأخير من الليل، طلقات بهذه الكثافة، ويبدو أنها تصدر من فريقين يردان على بعضهما البعض.

"الطلقات قريبة من القصر"
همـوا بـالانطلاق شـاهرين سـلاحهم لنجـدة سـكانه، حـذرهم أحـدهم مـن الانـدفاع، ربمـا يكـون أحـدهم يحـاول الهـروب مـن الجبل ويحـاول أقرانـه جذبهم بعيدًا، أطرق كبيرهم، جال التردد في نفسه، قال لنفسه:
- أيعقل أن يضحي أحدهم بحياته لهروب آخر؟.
لم ينتبه لعلو صوته، اندهش عندما أجـابوه بـالنفي، قتلـت إجـابتهم تـردده، أمرهم باتباعه للقصر.
ضغط الملل بحذائه الثقيل على صدور الشماليين، اقترح أحدهم الذهاب للجبـل وقتـل حراسـه وتنفيـذ بقيـة المخطـط، عنفـه الجميـع، وطـالبوه بالـصمت، اقتـرح آخـر الانتقـال للجـزء الثـاني مـن الخطـة ربمـا تكـون الأوامـر الـصادرة للحـراس عـدم الحركـة مهمـا حـدث، أخرسـه (عـادل) بنظرة شذراء، ساد الصمت هنيهة، بحزم قال (عادل):
- انتظروا إشارتي، ها هم آتون.
بمجـرد اقتـرابهم حـصدت رصاصـات الـشماليين أحـدهم، انطلقـت رصاصـات الحـرس هنـا وهنـاك حـائرة تحـاول اختـراق الأجساد المختبئـة دون جـدوى، لـم تـستطع أجساد الحـرس الإفلات مـن كميـة الرصاصـات التي أطلقت نحوهم.
بحماسـة حمـل الـشماليون الـسلالم، ركـضوا صـوب القـصر، تعثـرت أقدامهم بالأجساد المتنـاثرة، حـافظوا علـى تـوازنهم بـصعوبة، وضـعوا الـسلالم علـى الـسور، تـسلقوا الـدرجات بـسرعة دون أن يـصدروا أدنـى صـوت، جلـسوا علـى الـسور، سـحبوا الـسلالم، وضـعوها بالناحيـة الأخرى، هم (عـادل) بـالنزول، شعر بوخز بكتفه الأيمن انتشر بسرعة البرق ليمتلك جسده كلـه، اكتنـف رأسـه دوار عنيـف، ترنح، وهوى من ارتفاع عشرة أمتار.

***

عـاد (قـاهر) بظهـره للـوراء مـسدلاً جفنيـه مـستمتعًا بالجـدل الـدائر بـين الملاحظ و(نـافع)، ابتسم بسخرية، نجحت في جعلكما تعملان بأقصى طاقتكما بزرع الشقاق والتنافس بينكما، لن أشارككما في جدلكما فأنا أثق

بالنظام الموضوع للضيعة، بعصبية قال الملاحظ إنه يشم ريح المؤامرة، كل شيء يشي بذلك، يثق بصحة ما قاله (صقر)، بسخرية قال (نافع) مصدرًا ابتسامة لزجة أثارت حنق الملاحظ:
- لماذا قتلته إذن؟.
بنفاد صبر أخبره الملاحظ أنه قام بذلك ليرتدع الآخرون، قال(نافع)بتعجرف مشيرًا إلى صدره:
- منذ أن أخمدت تمرد (عباس) ولا يجرؤ أحد على تكرارها.
صوت الطلقات جعل الجميع يقفزون من أماكنهم، فاغرين أفواههم، بغضب صرخ الملاحظ:
- ألم أقل لكم؟.
اندفع (نافع) للنافذة، التصق بها، تعلقت حواسه بالخارج، غاب عن العالم المحيط بظهره، بهدوء جرد الملاحظ سيفه من غمده وهوى به على عنق (نافع)، عبأ بندقيته بالذخيرة، طمأن (قاهر) الذي ارتد والتصق بالجدار في ذعر، لم ينتبه لكلام الملاحظ عندما قال إن غرور (نافع) هو السبب، تأخروا كثيرًا، كان ينبغي إخماد التمرد قبل أن يندلع.
خرج يصرخ في الحرس بمواصلة القتال، بمجرد أن وطأت قدمه أرض الحديقة، وقبل أن يسدد، اخترقت الرصاصة جبهته، وسقط مضرجًا في دمائه.

***

ابتسم أحد الحراس المتراصين على السور وقال بسخرية وتعجرف:
- يا لغباء هؤلاء العبيد، ستنفذ ذخيرتهم قريبًا، وسنصطادهم كالذباب، لن تنفذ ذخيرتنا ولو قاتلنا للغد، نحن بأعلى محصنون أكثر منهم، ولو استمروا في قتالنا حتى الصباح سنراهم كما نرى البحر.
قهقه الجميع، شرد المتكلم، توقفت يده عن اللعب بالزناد، في قرارة نفسه تساءل عن اختفائهم، إطلاقهم لنيران كثيفة، ابتعادهم عن المخاطرة وكأنهم يحاولون جذب الانتباه إليهم لا أكثر، جميع الحراس المتواجدين بالقصر موجودون الآن جنوبًا، متراصون يردون بكثافة على النيران المطلقة نحوهم، انتفض، اتسعت عيناه ذعرًا، خشي النظر خلفه ورؤية

الأسوار الشمالية فارغة، أرغم رأسه على الالتفاف للخلف، تسارعت دقات قلبه عندما رأى الأسوار الشمالية مدججة بعبيد ممسكين بأسلحة يسحبون سلالم ويضعوها بالجهة الأخرى ليهبطوا، يجب منعهم بأي ثمن، لو هبطوا سيحتلون القصر ولن نقوى على مقاومتهم، سدد سلاحه وضغط الزناد، رأى أحدهم يتهاوى، صرخ في الآخرين لينبههم بالهجوم الشمالي، ساد الهرج والمرج، التفتوا لمواجهة الخطر، أطلقوا النار، جاوبهم الشماليون بنيران كثيفة.

توقفت الرصاصات عن ملاحقة الجنوبيين، أيقن (سليم) أن خطته كللت بالنجاح، تسلل عشرون حاملين السلالم تحت غطاء من النيران الكثيفة، وضعوها على السور، اندفع (سليم) يقود الموجة الأولى، أخرجوا سكاكينهم، بسرعة وهدوء تسلقوا، لاح للشماليين أشباح الجنوبيين فوق الأسوار، توقفوا عن إطلاق النار، اشتبك الجنوبيون مع الحراس بالسكاكين، أسرع الشماليون بالهبوط لأرض الحديقة، لمح (سليم) الملاحظ يهم بالخروج من القصر، انزوى، سدد بندقيته إلى رأسه، أرداه برصاصة واحدة، صرخ في الشماليين يطالبهم بترك (قاهر) له.

حمل الشماليون السلالم، واندفعوا باتجاه مكان القتال، صعدوا، حاصروا الحرس، في دقائق أبادوهم عن بكرة أبيهم، أسرع (سليم) بالهبوط من السور، ركض باتجاه القصر.

عندما وطأت قدمه أرض البهو استوقفت نظراته الصارمة (علياء) أعلى الدرج حاملة العديد من الصناديق، لم تستطع يدها المرتعشة المحافظة عليها، سقطت وتحطمت بدوي هائل، تناثرت قطع الحليِّ في كل مكان، انفجرت في بكاء حار وقالت بتشنج:

- أرجوك لا تقتلني.

بغضب قال (سليم):

- لقد ذقنا ذلكم، الآن سنذيقك ذلنا.

أمرهم بالقبض عليها، بعنف جردها (سليم) من ملابسها، ألقاها للجموع الثائرة، تناوبوها بقوة على مرأى من النساء الثائرات اللاتي تهتفن في الرجال بإذاقتها ما أذاقوهن، يأمرنهم بالقوة والمواصلة "يجب أن تموت

العاهرة"، رموها للنساء، بقطع الجريد ألهبن جسدها، انفجرت الدماء من كل جزء فيه، لم يتوقفن عن الضرب حتى عندما علمن بوفاتها لولا التعب الذي شعرت به عضلاتهن لما توقفن قط.
يئس (سليم) من إيجاد (قاهر) بعدما بحث عنه في أرجاء القصر، انزوى في إحدى الأركان محاولاً قمع العبرة التي انفلتت رغمًا عنه، عند عودته للمنزل أخرج السكين المخضب بدماء (سعيد)، لم يستخدمه في قتل المراقبين أو الحرس، وضعه في الغرفة الفارغة، أغلق الباب، طالب (صبره) بعدم الدخول أو محاولة تنظيفه، لتصدأ الدماء فوق نصله حتى يذوق دماء (قاهر)، استلقى، أعطى ظهره لـ(صبرة)، اقسم أنه لن يعاشرها حتى يقتل (قاهر).

***

لم يدم ذهوله والتصاقه بالجدار كثيرًا، تحرر سريعًا من أصفاد نافورة الدماء الناتجة عن قطع رقبة (نافع)، أثناء ذهوله تذكر خريطة- القابعة في الدرج الأيمن للمكتب- السرداب الكائن أسفل القصر الواصل بين قصره وقصر (عزيز).
أرغم جسده على التحرك، فتح الدرج، التقط الخريطة، سخر من (التلاوي) كثيرًا عندما علم بأمر السرداب، لم يتوقع أبدًا ثورتهم، أوشك على حرق الخريطة، شيء ما جعله يتراجع، تسارعت دقات قلبه عندما همَّ بإلقائها في النار، يبدو أن (التلاوي) كان أبعد منك نظرًا يا (قاهر)، عند خروجه من مكتبه اصطدم بـ(علياء)تهبط درجات السلم مهرولة، تساءلت مذعورة عن صوت الطلقات.
"إنها قريبة"
تجاهل (قاهر) سؤالها، باقتضاب أمرها بمرافقته، الوقت ينفد ويجب الذهاب سريعًا. تراجعت ثلاث خطوات للخلف، قاطعته قائلة بحزم.
- سأذهب لأجمع الحلي، لن أخسر كل شيء دفعة واحدة.
توقف وعده بالعودة في قصبته الهوائية، كاد يختنق، بصقه باشمئزاز، تمنى فسحة من الوقت تمكنه من خنقها بيديه، ضاق ذرعًا بحبها لأمواله، أشاح بيده، ركض مهتديًا بالخريطة، لن تستطيع اللحاق به، سيتحرر

منها أخيرًا، سيعود قريبًا، سيأتي بأخرى، يجب أن تكون ثرية لكي لا تطمع في أمواله، لن يستطيع أحد اقتفاء أثره، صنع (التلاوي) السرداب كمتاهة لا يستطيع تجاوزها سوى حامل الخريطة، وصل لاهثًا للباب الكائن أسفل قصر (عزيز)، لا يملك مفتاحه، طالبت (عزيزة) بالمفتاح عندما احتدمت بينها وبين (التلاوي) الأمور قبيل صنعها للسور بستة أيام معنفة إياه على سرقة الألف فدان ، ألا يكفيه ما سرقة منها؟ ألصمتها على السرقات السابقة لتبقى العلاقات بينهم قائمة يتمادى في الأمر؟، وقتها ابتسم (التلاوي) وقال بسخرية مشيرًا بيده إشارة بذيئة:

- وكأنك ورثتها عن والدك، إنها ثمن صمتي وموافقتي على الاقتران بك، أنسيت من أنت أيتها العاهرة؟، السبعة آلاف فدان والنصف السابقة ثمن اقتراني بأختك العاهرة الأخرى، أما الألفان والنصف فثمن اقتران اسمك بي.

احتقن وجهها وسارت مبتعدة....دق (قاهر) الباب بعنف، صوت الطرقات أيقظ جميع من في القصر، لم يعلموا من أين تأتي؟ دب الفزع في قلب (عزيز)، كاد يفقد وعيه، ظل يعدو هنا وهناك يبحث عن مكان يصلح للاختباء فيه من شيء لا يعلمه.

بحثوا ساعتين حتى عثروا عليه بعدما أرهف أحدهم السمع وتبع صوت الطرقات، حملوا (قاهر) إلى (عزيز) وآثار الإعياء بادية على وجهه، فالسرداب طويل ظل يعدو قرابة الثلاث ساعات، لم يتوقف أبدًا رغم ثقته باستحالة اللحاق به، ولكنه كان يثق بعدم قدرتهم على التمرد، أطعموه، بإسهاب قص لـ (عزيز) ما حدث، طلب منه المساعدة فقد ساعده كثيرًا.

- سأستبدل ضيعتي بضيعتك، سأدفع الكثير، ويجب أن أضمن حقي.

***

شيئًا فشيئًا عاد إليه وعيه، شعر بالدغدغة تسبح في جسده الغارق في الفراش الوثير، حرك جسده ببطء، تمطى، شعر بالألم يمزق كتفه الأيمن، توقف، تأوه، أسرعت يده لموضع الألم، فتح عينيه، تأمل الثريا الضخمة التي تتكبد سقف الغرفة المترامية الأطراف، حاول عد

الكريستالات المدلاة منها، اعتصر ذاكرته، اكتنف عقله دوار خفيف، تذكر اللحظات الأخيرة، الوخز، السقطة، لا يتذكر شيئًا آخر.
"لم أكن أعلم أن الجنة هكذا"
جال ببصره، وقف عند المرآة المصقولة الضخمة ذات البرواز الذهبي، تصاعد أنين الجرح، تأوه بصوت مسموع.
"ولكن الموتى لا يشعرون بالألم"
وصلت لمسامع (نابغ) صوت الآهات، اقتحم الغرفة، ابتسم وتنفس الصعداء عندما رأى (عادل) واقفًا على قدميه تشي انقباضات وجهة بما يعتريه من ألم، وقع بصر(عادل) عليه، سأله عما حدث، ألقى (نابغ) نفسه على أقرب مقعد، سحب نفسًا عميقًا، تمطى بنشوة وقال:
- ظننت أننا سنفقدك.
هب (نابغ) من مكانة، أمسك (عادل) من يده، سحبه للشرفة الكبيرة، أشار للجموع الواقفة على باب القصر تدعو له بالشفاء، هللوا عند رؤيته، زغردت النساء ، رقصوا، طالبه بالتلويح ببطء، رأوا يده السليمة تلوح، صرخوا فرحًا، سقط بعضهم مغشيًّا عليه من الفرح، بصوت خفيض سأل بدهشة عما حدث، هل هذا لأجله؟ لن يصدق مهما أقسموا.
"ماذا حدث يا(نابغ)؟ ماذا حدث؟".
بصوت جهوري طالبهم (نابغ) بالتزام الصمت قليلًا، سكت هنيهة ثم أردف قائلًا:
- الزعيم متعب، يحتاج للراحة، يستميحكم عذرًا في تركه الليلة، سيخرج إليكم غدًا، ليرى رغباتكم.
هللوا، هتفوا للزعيم، طالبوه بالراحة فهم يحتاجون إليه، ارتفعت أصوات من بين الجموع تطالبهم بالعودة لمنازلهم ليؤجلوا كل شيء للغد، دلف (نابغ) و (عادل) للداخل بعد انصراف آخر شخص في الضيعة، جلسا متقابلين، ابتسم (عادل)، بدهشة تساءل عما حدث، ابتسم (نابغ)، وقال شاردًا:
- آه.. أتوق للقليل من الراحة.

بحزم قال (عادل):
- لن أتركك قبل أن تقص لي ما حدث.
اتسعت ابتسامة (نابغ) وقال باستكانة وخبث:
- من أجل خاطر الزعيم سأبقى.
سكت هنيهة، ثم استطرد قائلًا:
- عندما انغرست الرصاصة بكتفك ترنحت، وسقطت، لم تكن قد فقدت وعيك بعد، تعلقت يدك اليسرى بالسلم، أسرعت بالتقاطك، حملتك فوق كتفي، وهبطت وسط الرصاصات الكثيفة التي يطلقها الحرس، تركتك قليلًا في مكان آمن، وبعد انتهائنا منهم جميعًا عدت إليك، حملتك إلى أعلى، كويت جرحك ليتوقف النزيف...

***

تمدد (عائد).
" انتهى الأمر، أبغي القليل من الراحة"
اختار مكانًا قصيًّا، لن يبحث فيه أحد، بعد لحظات غرق في النوم، صوت الطرقات العنيفة أيقظه، بامتعاض فتح عينيه، وصل لمسامعه صوت أحدهم يقول للفاتحين أصحاب الوجوه المصفرة من الرعب، صوت الطلقات أسقط قلوبهم بين أقدامهم، صوت الطرقات جعلهم يعلموا أن وقتهم قد حان، لا يجرؤون على الاختباء وعدم الانصياع لأوامر الطرقات، بابتسامة صافية قال المتحدث:
- لماذا تختبئون؟، لقد تمردنا، قتلناهم جميعًا، تجمعنا تحت راية (عادل) زعيمنا.
هلل الفاتحون، احتضنوا بعضهم، قبلوا أيادي المتحدث، اغرورقت عيون المتحدث بالدموع، بصوت متهدج أخبرهم بإصابة الزعيم.
"ينام الآن في القصر، ادعوا له بالشفاء"
لطموا، صرخوا، أهالوا التراب فوق رؤوسهم، قطب (عائد) حاجبيه، أوشك على الخروج وتلقين المتحدث درسًا قاسيًا لا ينساه أبدًا.
"ما الذي يرمي إليه هذا الحقير؟"

بمجرد ابتعاده لملم وعيه، تماسك، نهض، ركض، بحث عن (سليم)، وجده واقفًا خارج أبواب القصر يتوج وجهه بنصف ابتسامة واثقة مفعمة بالارتياح، اقترب من أذنه، همس له بما يحدث، طالبه بالتحرك وإيقافه، هو يعلم جيدًا من خلف هذا؟، رفع (سليم) يده طالبًا منه الصمت وقال بحزم:
- لم أقم بالتمرد من أجل أي شيء، لا أريد أن أصبح الزعيم، يكفيني أنها نجحت.
ابتسم، تحركت يده لتربت على كتف (عائد) الذي ارتد للخلف لكي لا يمسسه (سليم) وقال بحزم وصرامة:
- هنا سنفترق، عندما تراني لا تحاول إلقاء السلام.

***

هيأت لهم عقولهم انطلاق الأبواق، استيقظوا في فزع، ارتدوا ملابسهم المهلهلة الملقاة جانبًا، تذكروا ما حدث البارحة، ابتسموا، خرجوا، ساروا جماعات باتجاه القصر، جلسوا أمام الأبواب، بعد نصف ساعة خرج (عادل) يتبعه (نابغ) حاملًا مقعدين من الخشب، اعتلى أحدهما (عادل)، واعتلى هو الآخر. قال(عادل):
- سنعمل، لن نترك الأرض تموت، لن ندعهم يسخرون منا، لن نعمل طوال اليوم، من حقنا القليل من الراحة، سنشارك جميعًا في إدارة الضيعة، سننفق كل الأموال لتحقيق راحتنا، سنشتري الملابس، سنأتي بالأطباء، بالمعلمين ليعلموا أولادنا، سنرسلهم لبلاد ما وراء الجبل ليتعلموا أكثر.
سكت، سمح لـ (نابغ) بالكلام، فصرخ قائلًا:
- لن يقهرنا أحدٌ بعد اليوم، سنحرق السياط، لن يجلدنا أحد ولن نجلد أحدًا، سنطلق على ضيعتنا المدينة الحرة؛ لتبقى حرة أبد الدهر.
هللت الجموع، اندفعوا للمخزن، هدموا الزنازين، أخرجوا السياط، أشعلوا النار فيها وسط موجة عاتية من التهليل.

لـم يـذهب -بعـد ذلـك- الأطفـال للعمـل، انـدفعوا ناحيـة القـصر، طلبـوا الاجتمـاع بــ(عـادل)، احتجـوا علـى عـدم طلـبهم للمـشاركة فـي التمـرد، أطرق(عادل).

"أين أنت يا(نابغ)؟، أنقذني من هذا الموقف"

قال أحدهم -يبدو أنه زعيمهم- بحزن:

- لسنا بأطفال، ما رأيناه هنا جعلنا نعبر حدود أعمارنا.

قال (عادل) بسرعة ولهفة وكأنـه يخشى نسيان الكلمات التي وجدها عقله

- لـم نفـرق بـين طوائفنـا نـساء ورجـالاً وشـيوخًا وأطفـالاً، رأينـا الجميـع متساوين؛ لهذا لم تأت على أذهاننا هذه الفكرة قط.

طأطـأ كبيـرهم أمـام قـوة حجـة (عـادل) ، رفـضوا مبارحـة أمـاكنهم قبـل الاعتذار لهم.

(11)

قـــــرار

8/23/السنة الأولى للثورة:

باسم أهالي المدينة الحرة:

قررنا تحريم وتجريم استعمال الألفاظ الآتية:

السيد.

الملاحظ.

المراقب.

السيدة.

ومن يضبط متلبسًا بالتفوه بأي لفظ من الألفاظ السابق ذكرها يجلد عشرين جلدة على مرأى من الجميع.

زعيم الصيغة

عادل

وجدها منبعجة، انحنى، التقطها، كان يجمعها وقالب من الطوب، رباط من ملابس قديمة، لم يستطع معرفة فحواها، ولد ونشأ في الضيعة، لم ير شكل الحروف قط، نظر إليها بشك، شكلها يوحي بالخطورة، ركض، أعطاها لـ(سليم).

- وجدتها عند الأسوار الفاصلة بيننا وبين ضيعة (عزيز).

التهمت عيناه محتوياتها، اتسعت ذعرًا، اقتحم القصر في جلبة، صرخ:

- أيقظوا (عادل)، استدعوا (نابغ).

● **فحوى الرسالة.**

" مكتوبة بمداد أحمر وكأنه دماء أحدهم، بخط بدائي".

"إلى من نحاول السير على طريقهم، يعدون للهجوم عليكم، احذروا.. أقرانكم في ضيعة (عزيز)".

بشك تساءل (نابغ) عن كيفية إيصال الرسالة، الأسوار عالية، كيف علموا بأمر الهجوم ؟ طأطأ (سليم)، بامتنان قال:

- لقد جابهتم الكثير من الصعوبات من أجل إبلاغنا الرسالة.

بعصبية قال (نابغ):

- باعتباري القائم على شئون الأمن، لا يحق لسواي الكلام عنه، لماذا لا تكون هذه الرسالة مدسوسة علينا من (قاهر)؟
ابتسم (سليم)..
"ترغب في التملص من المراجعة، سأقف لكم بالمرصاد، لن أترك لكم الحبل على الغارب"
قال (سليم) بهدوء:
- لا تنس أنني مستشاركم، لماذا يقوم (قاهر) بهذه الخطوة؟.
احتقن وجه (نابغ)، يعرف ما يرمي إليه (سليم)، قال:
- لنتخبط.
أجاب (سليم):
- لنعتبر أن الرسالة صحيحة، ونسير بهذا الاتجاه.
دلف (عادل) الغرفة يتمطى مرتديًا ثوبًا من ثياب (سعيد) الأنيقة، جلس خلف المكتب الضخم، بصوت ناعس سأل قائلًا:
- ماذا حدث ؟.
أثناء قصهم للأمر، لم يستطع فهم إشارات (نابغ) الخفية لكي يأخذ صفه، في قرارة نفسه صمم (نابغ) على عدم إلقاء الأموال التي وجدوها في الخزائن على شراء الأسلحة، فلن يكفي السلاح الموجود في صد هجوم كهذا، والأمر غير مؤكد.
نُفخ في الأبواق، أعلن النفير اقتراب سفينة، انتفضوا، لم يجل أبدًا بخاطرهم تنفيذ الهجوم بهذه السرعة، ركضوا، أمروهم بتوجيه المدافع عليها، لا يعلمون كيفيه إدارتها، يوجهونها للتخويف، تراصوا مشهرين بنادقهم، وقع بصرهم على الرايات البيضاء المرفوعة فوق صاري السفينة، تنفسوا الصعداء، وقلت قليلًا سرعة دقات قلوبهم، أمروهم بمواصلة التسديد ربما يكون في الأمر خدعة، لمح (سليم) (توفيق) واقفًا على مقدمة السفينة يلوح، أمرهم بإدراة فوهات المدافع بعيدًا، خفض البنادق، همَّ بالسير لاستقباله، صرخ (نابغ):
- أنا القائم على شئون الأمن، ولا أسمح لك بالتدخل فيما أقوم به، ربما يكون في الأمر خدعة.

أخرسه (سليم) بنظرة جانبية، وواصل سيره ولم يعلق، ارتجف (نابغ) يعلم بمعرفة (سليم) بنواياه، ولكنه سيخاطر، يجب إزاحة (سليم) بعيدًا، عندما وطأ (توفيق) أرض الضيعة، ابتلع المكان بنظرة واحدة، سجد، قبل الأرض، قال بصوت خفيض.
- يا ليتني ما تركتك.
احتضنه (سليم)، سأله عن زوجته.
- ماتت من العطش والجوع أثناء هروبنا.
طأطأ (سليم)، اعتذر، أجل إلقاء سؤاله عما رآه في هروبه، ابتسم (توفيق)، ربت على كتفه وقال:
- لم تكن تعلم .
سكت هنيهة، ثم استطرد قائلًا:
- أتيت عندما علمت بأمر تمردكم واستيلائكم على الضيعة، وعلمت أيضًا أنهم يعدون للهجوم عليكم، أرسلوا لجمع المرتزقة، فقررت المجيء لنجدتكم والوقوف بجانبكم.
احتضنه (سليم)، قبله، قص سريعًا أحداث التمرد، دور (نابغ) و(عادل) فيه، بإعجاب شد (توفيق) على أيديهما.
- كنت أتمنى أن أكون معكم.
سأله (سليم) عن عمله، ارتبك، وأجاب.
- تنقلت بين الأعمال.
سأله (نابغ) عن ماهيتها، أدار (توفيق) دفة الحديث بعيدًا، طلب رؤية السلاح ليرى إن كان يكفي أم لا، بشك قال (نابغ):
- ما الذي يجعلنا نثق بك؟.
ابتسم (توفيق)، نظر إليه (سليم) بغضب، قال(توفيق) بهدوء:
- وما الذي يدفعني للكذب؟، وهل في تحذيري ضررٌ لكم؟.

***

في شرفة الفندق الرث الكائن على رأس أحد الشوارع الجانبية الفقيرة ببلاد ما وراء الجبل، وقف (سليم) يستنشق بنشوة الهواء المعتق برائحة الندى.

"لم أذق نومه كهذه منذ سنوات"
تمطى, عبثًا حاول فك تعقيدات عضلاته ليرتاح قليلًا من عناء سنوات العمل المتواصل، أرسل بصره لرأس الشارع الرئيسي المرصع بالكتل الطينية المتجمدة، رأى (توفيق) يتحدث مع رجلٍ الشق الطولي المتوج وجهه الجهم يشي بخطورته، احتقان وجه (توفيق)، حركاته العصبية، تقطيبة وجه صاحب الشق، حركاته الغاضبة، إشارته المحذرة تشير إلى احتدام الأمور بينهما، توقع اشتباكًا، تأهب لمساندة (توفيق)، لن يتدخل الآن، سينتظر حتى تشتعل الأمور بينهما، ابتعد صاحب الشق بخطوات واثقة، تبعه (توفيق) بنظرات غاضبة تسعى لقتله لولا امتزاجها بالاستكانة، قطب (سليم) حاجبيه، المرة الأولى التي يرى فيها الغضب والاستكانة مجتمعيْن، حيرته هذه النظرة.
سار (توفيق) ناحية الفندق مطأطئ الرأس، سينتظر ليرى ما يقوله (توفيق)، دفع (توفيق) الباب حاملًا إفطارهما فوق صينية بلاستيكية، ابتسم وقال:
- لم أشأ إزعاجك، تركتك نائمًا، وذهبت لإحضار الإفطار.
ابتسم (سليم)، تمطى، جلس على طرف الفراش، وضع (توفيق) الصينية فوق المنضدة المستطيلة العارية، أعطى(سليم) ظهره ليخفي الدمعة التي أوشكت على الانفلات، قطب (سليم) حاجبيه، رشق بصره في ظهر (توفيق).
"ما الذي يخفيه (توفيق) بالضبط"
أثناء تناولهم للطعام أخبره (توفيق) بموعدهم مع تاجر السلاح، سيسألونه عن أمر المرتزقة، ابتسم (سليم)، هز رأسه بالموافقة ولم يعلق.
"لماذا لم يتحدث (توفيق) عن صاحب الشق؟لماذا ؟".

***

تعلقت أنظار العاملين في الأحواض المجاورة للبحر بالسفينة التي ترسو على الشاطئ، هبط (سليم)، لوح، حيوه رافعين آلاتهم، هبط (توفيق) والطبيب و المدرسين، أمر (سليم) الرجال بنقل حمولة السفينة للمخزن، ركبوا العربة المهترئة، أشاح الطبيب بوجهه بعيدًا ليخفى امتعاضه.

"أتيت إلى هنا لأركب عربة القمامة"
اشتمَّ (سليم) رائحة الضيق المنبعثة من الطبيب والمدرسين، قال لنفسه: يجب أن يشعروا بتميزهم لكي لا يرحلوا.
عندما وقعت عيون الطبيب والمدرسين على القصر جالت في المكان بانبهار، تمنوا لو يقطنوه، انتحى (سليم) بـ(عادل) و(نابغ) جانبًا، قال بصوت خفيض:
- بعد البحث المضني لم يقبل سوى هؤلاء الحضور، امتعضوا عندما ركبوا العربة التي تحملنا للعمل، يجب أن يشعروا بتميزهم لكي لا يرحلوا.
هزا رأسيهما بالموافقة، صافحاهم، أمروا بإعداد استراحة المراقبين لنومهم، وبيت الملاحظ لعمل الطبيب، عرض (عادل) إصابته على الطبيب، فحصها وقال:
- يجب إخراج الرصاصة من كتفك وإلا ستضطر بعد ذلك لبتر ذراعك، يجب أن تذهب معي لبلدي، فالتجهيزات هناك ستساعدنا على إجراء العملية.
قال (نابغ) بصرامة:
- لن يخرج الزعيم من هنا، لا نعلم حجم الأخطار التي سيواجهها في الخارج ستجرى له العملية هنا.
وافق الطبيب بعد ما حملهم مسئوليه قلة الإمكانات، سأله (سليم) عن مدى حاجته لمساعدين، أجاب الطبيب:
- نعم، اثنين.
ابتسم (سليم).
"يجب أن تستريح (صبرة) من هذا العمل الشاق"
- صبره زوجتي على دراية بهذه الأمور، ولكنها في حاجه للقليل من التدريب، سأرسلها إليك.
أمرهما (عادل) بتوزيع الملابس على الجميع، بعد انصرافهم، انتحى(سليم) بـ (نابغ) جانبًا، أخبره عن صاحب الشق، تكتم (توفيق) على مقابلته، عقد (نابغ) حاجبيه، وشرد.

***

وقع اختيارهم على ثلاثمائة وخمسين رجلًا...عند الجبل تراصوا صفوفًا، سار (نابغ) و(توفيق) و(سليم) بين الصفوف يضبطون وضع أحدهم، ويعلمون آخر كيفية التصويب، لم يحشوا بنادقهم بالذخيرة لكي لا يلفتوا الانتباه إليهم، جلست بجوارهم جماعات من النساء يهللن - لن يشترك النساء والأطفال في الحرب، سينأون بهم بعيدًا- ويصنعن مستطيلات خشبية متقنة الصنع لا تسمح لأي شيء بالمرور عبرها، طولها متر وعرضها نصف متر.

قبل حلول الليل بساعتين، أراح الرجال أجسادهم المنهكة من العمل، مع هبوطه استيقظوا تصاحبهم دفقات متقطعة من الصداع العنيف المرافقة لأنين الجسد المنهك، استعطفوا أجسادهم لتصنع ثلاثمائة وخمسين حفرة ، طول الواحدة متر وعرضها نصف متر وارتفاعها متر، تكوِّن الحفر نصف دائرة مركزها بوابة السور الفاصل بين الضيعتين، هبط لكل حفرة رجلان أحدهما يحمل بندقية، مزودين بطعام يكفيهما ليلتين فقط، يخشون على الطعام أن يفسد، سيأكلونه مهما حدث، سيصل المرتزقة غدًا، لن يتأخر الهجوم عن بعد غد، سدوا الحفر بالمستطيلات الخشبية، وردموا فوقها بالتراب تاركين فجوة صغيرة تسمح للقابعين في الحفرة بمراقبة البوابة، هاجمهم النوم العميق، لم يستيقظ معظمهم إلا على الصرير المزعج للأبواب الضخمة، لن يخرجوا إلا عندما يخفضون بنادقهم، غرورهم لاعتقادهم أنهم يملكون المفاجأة، الفلول التي ستولي هاربة عند رؤيتهم سيجعلانهم يخفضون البنادق ويقهقهون بنشوة، أما إذا اقتربوا من الحفر دون أن يخفضوا بنادقهم فيجب أن يدفع الأعزل السقف الخشبي ويسدد الآخر بندقيته ويحصدوهم.

ارتطمت بأذن (قاهر) أوامر (عزيز) بقفل الأبواب، صرخ، رأى فلول المرتزقة تتخبط عائدة، طلب من (عزيز) تركهم يدخلون لتنظيمهم، وليعاودوا الهجوم مره أخرى، رفض، خاف من مطاردتهم عبيد الضيعة الأخرى لهم، وقتها سيتمكنون من الاستيلاء على ضيعته، أغلقت الأبواب تاركة إياهم فريسة سهلة للرصاصات الهادرة.

(12)

بامتعاض أمعن في الحشفة المدلاة من عضو الصبي المسجى أمامه على الطاولة مكبل الأطراف.

"أتيت إلى هنا لأختن الصبية، أبغي الحصول على الخبرة، ألا يمرض هؤلاء البغال"

لكثرة ما قام به من ختان حدد بالنظر الأماكن التي سيجري فوقها المبضع، بسرعة فائقة أزال الحشفة، أحاط عضو الصبي باللاصق الأبيض، باشمئزاز قال:

- نظفوا الطاولة لاستقبال آخر؛ فالأعداد الموجودة خارجًا لن تنضب أبدًا.

داخل حجر أمه الملبد بالغبار جلس يداعب حبات التراب المتواجد أسفل قدميه الحافيتين، وقع بصره على الفتى الخارج من العيادة ملقيًا عجزه للوراء، ممسكًا بجلبابه من الوسط ليبعده عن عضوه، ويسير مباعدًا بين ساقيه، انفجر ضاحكًا، أشار ناحيته وقال لأمه.

- انظري كيف يسير ؟

ابتسمت، ربتت على كتفه، احتضنته بقوة، وقبلت رأسه، ضحك عندما شاهد آخر يخرج من العيادة بنفس الهيئة، ابتسم عندما رأى ثالثًا، كل من يدخل هناك يخرج هكذا، ارتجف، اصفر وجهه.

- أمي، هل سندخل هذا المكان؟

- لا تخف يا صغيري، لن تشعر بشيء.

وصل لمسامع والدته صوت اصطكاك أسنانه، ضحكت واحتضنته بقوة، نظر خلفها، صرخ.

- أبى قادم من هناك.

التفتت، أعطى ساقيه للريح، ركضت خلفه، سبها، أمسكت به، وحملته بين ذراعيها، أدخلته العيادة، وضعوه على الطاولة، كبلوه، عروه، تشنج، صرخ ، أفقده الرعب السيطرة على عضلاته، اندفقت نافورة البول تغرق الجميع، بامتعاض مسح الطبيب البول المغرق وجهه بكفه، صفع الصبي، وحمله من ياقته وركله بقوة فطار بعيدًا، هوت والدته على يد الطبيب تقبلها وتطلق سيلاً من الاعتذارات، سحب الطبيب

يده بعنف وأشاح بها باشمئزاز، نظفوا الطاولة، أعادوه إليها، حدد الطبيب الأماكن ثم أزال الجزء الزائد، خرج الصبي من العيادة يبكي، بصق على والدته، وصرخ:

- كلاب.

رآه الصبية الجالسون بالخارج ملقيًا عجزه للوراء، ممسكًا جلبابه من الوسط ليبعده عن عضوه ويسير مباعدًا ما بين ساقيه، ضحكوا، قال بغيظ:

- سيحدث لكم ما حدث لي.

ارتجفوا، صرخوا، ساد الهرج و المرج، أرغمتهم أمهاتهم على الجلوس بين أيديهن.

***

ألقي (قاهر) بنفسه على فراشه الذي ارتج مصدرًا صريرًا مزعجًا اهتزت له خلايا (قاهر) المنهكة، أطلق زفرة حارة حاول عبثًا أن يرافقها بعناء العمل، توقف عن مداعبة خصلات رأسه عندما تذكر اجتماعه بـ(عزيز) بعد فشلهم في استرجاع ضيعته، لم ينبس ببنت شفة أمام غضب (عزيز)، فرض العمل عليه، لم يستطع الرفض، ابتسم (عزيز) وقال بهدوء:

- لصلة القرابة التي تربطنا ستحافظ على أموالي، أشعر بنهب الملاحظ لي، ولا تنس ما دفعته للمرتزقة، وما دفعته في السلاح الذي استولى عليه عبيد ضيعتك.

تذكر الأيام التي لم يكن يلقي فيها بالًا لأحد، استعطاف (عزيز) الدائم لكي يقف بجواره في خسائره المتعاقبة، إصداره الأوامر للجميع، حتى (عزيز) كان يتلقى منه الأوامر، الملاحظ أيضًا يصدر الأوامر، بل يجلد كل من يخالف له أمرًا، شيئًا فشيئًا سقط في النوم العميق.

قـــــرار

2/4/30

باسم أهالي المدينة الحرة

قررنا:

* إنشاء غرفة عمليات مجهزة بأحدث الأجهزة في قبو القصر، لكي لا نفكر في صحتنا وتتفرغ عقولنا للتفكير في شئون أهالي المدينة.

الزعيم.

عادل.

بمجرد معرفته بالقرار، انطلق صوب القصر مغاضبًا، طلب مقابلة (عادل)، أخبره بتحفظاته؛ فيجب أن يستفيد الجميع من غرفة العمليات، ابتسم (عادل) وقال بهدوء:

- ومن ذا الذي قال لك إنك لن تستفيد منها؟، هي مفتوحة لك ولزوجتك في أي وقت.

لانت قسمات وجه (سليم) وقال بهدوء:

- لم آتي للحديث بهذا الشأن، لقد أتيت لأتحدث عن ضرورة تحرير ضيعة (عزيز)، وقتل كل الكلاب المتواجدين هناك.

- ولماذا نثقل كاهلنا بغيرنا؟

- يكفي أنهم حذرونا من الهجوم، كما يجب ألا تظل مصدرًا لتهديدنا.

وحدة المراقبة. **سري للغاية.**

المنطقة (د).

تقرير.

من كبير مراقبي المنطقة (د) للعين الساهرة علمنا أن:

(1) سعدون راضي

(2) جمال الدرافيلي

(3) طاهر بدر

في جمهرة من الناس، أعابوا في جنابكم وجناب الزعيم بكلمات يندى لها الجبين، لا نقوى على ترديدها، كما يحاولون تأليب الناس عليكم وعلى جناب الزعيم، نرجو الإفادة بما نتخذ.

قرار سري للغاية.

نأمر بحبسهم وتعذيبهم حتى الموت ليكونوا عبرة لكل كلب سولت له نفسه التطاول على أسياده.

العين الساهرة

قطعوا جذوع النخل، صنعوا أربع عجلات ضخمة، أوصلوا كل اثنتين ببعضهما، وضعوا بينها جذوع النخل، دفعها الرجال بقوة نحو البوابة الضخمة التي تتوسط السور الفاصل بين الضيعتين فتحطمت بدوي هائل أيقظ جميع من في الضيعة، صوت الطلقات جعل عبيد ضيعه (عزيز) يوقنون أن وقت تحريرهم قد حان، هبوا كرجل واحد، قاتلوا بأيديهم الفارغة، في دقائق معدودة أبادوا جميع الحرس والمراقبين، اقتحموا القصر، أخرجوا (عزيز) من تحت فراشه، شنقوه على أبواب قصره، كالمجنون بحث (سليم) عن (قاهر)، سأل عبيد ضيعة (عزيز) عنه، أخبروه أنه يعمل ملاحظًا ولم يروه في المعركة، قادوه لمنزله، اقتحموه، وجدوا (قاهر) ملتصقًا بالجدار وقد بلل سرواله، طلبهم (سليم) بتركه له، بخطوات بطيئة اقترب منه، لم يبال بالعبرات المبللة عينه، أخرج سكينه التي صدئت فوق نصله دماء (سعيد)، طعنه مرات ومرات، تدلت أحشاء (قاهر) خارجًا وتهاوى جسده الضخم محدثًا دويًّا مكتومًا.

***

جلس (نابغ) على طرف الفراش، تمطى، همست الوحدة بأذنه، سقطت الكآبة عليه، أطلق زفرة حارة محملة بعناء حياته بأكملها، لم تهتم به إحداهن قط، جاوب على تهمشه بحمل نفسه بعيدًا والاحتماء بالصيد، ابتسم عندما تذكر لجوء (سليم) إليه في الصباح يشكو من ضعفه وعدم قدرته على معاشرة زوجته، طلب منه إرشاده لشيء يتجاوز به محنته، ابتسم(نابغ)وقال بمرارة:

- أنا.. أنا لا أعرف شيئًا عن هذه الأشياء.

اتسعت ابتسامته محملة بأطنان من مرارة معجونة بحسرة، تركتهم هناك يحتفلون، لم أستطع المواصلة، أتوق للراحة، تذكر (صبرة)،

حاول طرد صورتها من مخيلته لم يستطع، انتصب، حملته قدمه لمنزل (سليم)، طرق الباب، فتحت (صبرة)، ابتسم ابتسامة لزجة وقال:
- أخبرني (سليم) عن فشله البارحة، طلب مني أن آتي إليك لأشبعك.

ألجمتها الصدمة، حملها للفراش، اعتلاها، لم تشعر بثقله فوقها، لم تشعر برحيله، لم تشعر قدوم (سليم) ، رغبتها العارمة في نسيان ما حدث، نسيان كلمات (سليم) لـ(نابغ)، أفقدت عقلها السيطرة على نفسه، نسي ما حدث مع (نابغ)، نسي أحداث اختطافهما، زواجهما، احتياجها للطعام والشراب والنوم والإخراج، ظلت علاقتها بالحياة ممتدة عبر عينين ثابتتين محدقتين في الفراغ، لم يعرف الطبيب كنه مرضها، ألزم (سليم) نفسه بمسئولية تنظيفها، وإرغامها على الطعام، ولكن النار المشتعلة بداخلها أتت عليها، اعتراها الذبول، سقطت من مقعدها الذي لم تقم من عليه لحظة واحدة طوال أربعة أشهر كاملة، وقتها قرر(سليم) أن يفيض نبع دمعه إلى الأبد.

قرار

3/5/14

باسم المدينة الحرة

قررنا:
حبس(توفيق) لخيانته وعمالته لبلاد ما وراء الجبل.

الزعيم
عادل

(13)

راودتـه (صـبرة) عـن نفسه، سـرى الخـدر فـي جسده، تجـرد مـن ملابــسه، لــم يــستطع المواصــلة، لــم يــستجب للمــساتها الراجيــة، استيقظ(سليم) مهمومًـا، يشعر بلمسات (صبرة) الحانية على جسده، لم يستطع معاودة النوم، ارتدى ملابسه وهام، تناهى لمسامعه صوت(نـابغ) الغاضب منبعثًا من أحد المنازل، ذهب ليرى ما يحدث، ارتطم بحارسي (نابغ) ضخمي الجثة، منعاه من الدخول، أزاحهما جانبًا، ونظر إليهما نظرة نارية مزقت نياط شجاعتهما، عندما وقع بصر صاحب المنزل عليه اندفع ناحيته وهوى على يده يحاول تقبيلها، وقال باكيًا.

- أقبل يدك يا سيد (سليم)، انجدني.

قال (سليم) بغضب:

- ما الذي يحدث بالضبط؟

- لقد أعجبت زوجتي السيد (نـابغ)، ويحـاول الزواج بها وإرغامي على تركها.

نظر (سليم) لـ (نـابغ) بغضب، فجاوبـه الأخير بابتسامة ساخرة وقال متهكمًا:

- مالك أنت بالذي يحدث هنا؟

سكت هنيهة، ثم استطرد قائلًا مشيرًا إلى صدره:

- إنها أمور رجال، لماذا لم تحاول منع زوجتك من اللهو وتحاول منعي؟

قطب (سليم) حاجبيه وقال بغضب.

- ماذا تقصد ؟.

اتسعت ابتسامة (نابغ) وقال:

- لم تحاول زوجتك مقاومتي، أراهن أنها هي التي ذهبت لـ(قاهر) ترجوه أن يرفع عن كاهلها عناء العيش مع رجل لا يستطيع فعل شيء.

انقض (سليم) على (نـابغ)، طرحـه أرضًـا، ضـغط بكلتـا يديـه علـى عنقه، حاول (نابغ) المقاومـة، أن يضرب هنـا وهنـاك، خـارت قواه أمـام حاجـة جسده الماسة للأكسجين، اقتحم الحارسان المنزل، هوى أحداهما على عنق (سليم) بعدة لكمات أفقدته وعيه ، ثم ذبحا صاحب المنزل وزوجته.

● **من ملفات كبير مراقبي المنطقة (د) السرية:**

"أعد هذه الملفات لحماية نفسه من غدر العين الساهرة، تحتوي هذه الملفات على نسخة من كل القرارات والأوامر التي أصدرها إليه العين الساهرة لكونها تعود إليه مرة أخرى ليمزقها، كما تحتوي على نسخة من كل التقارير التي أرسلها إلى العين الساهرة ".

● **ما ورد في الملفات:**

بالمصادفة البحتة علمت أن العين الساهرة أمرت كبير مراقبي المنطقة (أ) بإعداد تقارير سرية ملفقة تتهم (توفيق) بالخيانة والعمالة لبلاد ما وراء الجبل، بشق الأنفس استطعت الحصول على نسخة من أحد هذه التقارير وهو كالآتي:

"من كبير مراقبي المنطقة (أ) للعين الساهرة، بنفسي تتبعت المدعو (توفيق) في سفره لبلاد ما وراء الجبل، وتأكدت شكوك جنابكم حوله حيث إنني رأيته يجتمع بالعديد من الرجال، قاموا بإعطائه حقيبة ممتلئة بالأموال، أعطاهم الكثير من الأوراق، لم أستطع معرفة فحواها، توجه بعدها لأحد البنوك وأودع الأموال هناك".

جلس (سليم) في ركن قصي من الزنزانة، لم يشأ (توفيق) قطع خلوته طوال الثلاث ليال السابقة، هو يعرف صعوبة الأيام الأولى في الحبس، يتحرق لإخباره بما حدث له منذ هروبه حتى قدومه للضيعة مرة أخرى.

- أخبروني أنك عندما كنت معي في بلاد ما وراء الجبل رأيتني أتحدث مع رجل غريب، شكله يوحي بالخطورة، للمرة الأولى سأقص ما حدث لي منذ هروبي وحتى عودتي ثانية للضيعة ...

ضرب (عادل) بكفه المكتب وصرخ:

- قتلت (نابغ) لأنه حاول ردعك عن تلويث إحداهن، أيها الحقير، أنسيت ما فعله (قاهر) بزوجتك؟، أتفعل ما فعله بك؟.

وقتها اجتاحت (سليم) رغبة عارمة في الصمت زادت من ثورة (عادل) فصرخ في الحارسين الخاصين لـ (نابغ) البادي على وجهيهما آثار لكمات عنيفة ادعيا أنها ناتجة عن مقاومة (سليم) لهما.

شعر (توفيق) بغياب عقل (سليم)، وأنه لم يسمع كلمة واحدة مما تفوه بها فصام عن الكلام هو الآخر.

قــرار

5/2/13

باسم المدينة الحرة

قررنا إعدام كل من:

(1) توفيق: لخيانته وعمالته لبلاد ما وراء الجبل.

(2) سليم: لقتله العظيم (نابغ) أثناء محاولته الشريفة في الذود عن إحداهن، حاول الآثم (سليم) الاعتداء عليها، كما قتل المرأة و زوجها.

على مرأى من الجميع ليكونوا عبرة لكل من تسول له نفسه الخروج على القواعد.

السيد

عادل.

صوت الفرقعة الناتج عن تحطم فقرات (توفيق) و (سليم) العنقية، أرجف الحاضرين، ولكن (عائد) شد قامته في اعتداد وعقد حاجبيه، ثم علت وجهه ابتسامة خفيفة ظافرة، لم ينتظر للغد، جمع الرجال في منزله، نظر في وجوههم وقال بصرامة:

- إلى متى سنرضى بما يحدث؟، هم يأخذون كل شيء ونحن لا نأخذ أي شيء، أو يلقون إلينا بالفتات، هم يقطنون القصور، ويلقون إلينا بقطعة ملابس أو بالقليل من الأرز والأرغفة.

- وماذا سنفعل؟

- يجب أن يرحل من في القصر.

سكت هنيهة ، ووقف من مكانه وشد قامته في اعتداد، استطرد قائلًا:

- من معي؟

- أنا معك.

ابتسم (عائد).

- وأنا معك.

في صوت واحد.

- كلنـــا معك.
اتسعت ابتسامة (عائد) اللزجة.

تمـــــــــــــــــــــــت

بدأت: 2004/12/3
وانتهت: 2007/10/23